رضـاب

د. بشير عبد الواحد يوسف

الكتاب : رضاب (رواية)

المؤلف : د. بشير عبد الواحد يوسف

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع : ٩٦٣١ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 206 - 9

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

لوحة الغلاف للفنانة الإيرانية ميترا شادفر Mttra Shadfar



رضاب

رواية

د. بشير عبد الواحد يوسف

إهـداء

أهدي هذا الجهد إلى ابنتي الدكتورة سناريا

لطيبة قلبها وحنانها واهتمامها بأمها وأبيها

وأرجو من الله أن يحفظها ويزيدها ذكاءً على ذكاء.

شكر و تقدير

إلى زوجتي الغالية...

لخدماتها وتشجيعها وتهيئة الجو الملائم للكتابة.

مقدمة

حاولت جهدي أن أكتب روايتي بلُغةٍ سهلة الفهم والاستيعاب وواضحة المعنى ، لُغة بسيطة متداولة ، ليست بالسهل الممتنع ، ولكنها السهل المنبسط.

و"رضاب" بطلة روايتي أيضًا إنسانة بسيطة متواضعة طيبة ، مشكلتها أنها تثق بالآخرين ، لهذا كانت تجربتها الأولى بالزواج فاشلة بكل المقاييس ، لكن الله عوَّضها خيرًا بـــ"حسن" الشاب الوسيم المخلص ابن العائلة الفلاحية الذي تعيش معه الحياة بحُلوها ومُرها ، وبمرشدها وأبيها الروحي الرجل الطيب الصائغ "زهير" ؛ كاتم أسرارها وأبوها الروحي.

إنها تجربة حياة تمرُّ بمحطات تستحق التوقف عندها ، تنتهي بمحطة الهجرة إلى السويد بلد الجليد ، ورغم برودة الطقس في الشتاء ، ولكن دولة السويد تعطيك الدفء بالعدالة والمساواة والأمان والعيش الرغيد ، فالدولة هي أمك وأبوك ، ترعاك وتهيِّئ لك أسباب السعادة والحرية ، وتفتح أمامك أبواب المستقبل لتحيا كبني آدم بمعنى هذه الكلمة ؛ ما دمتَ تحترم النظام

والقانون والناس؛ كل الناس؛ دون تمييز، لقد زرعوا الديمقراطية والنظام واحترموا الإنسان والزمان، فتطوروا في كل المجالات.

نحن في وطننا الأم كُنَّا نسمع بالديمقراطية والحرية ونتداول هذه المصطلحات في إعلامنا، ولكننا لا نحسها ولا نلمسها وكأنها من الروحانيات... هم زرعوا فحصدوا، ونحن لا نعرف كيف نزرعها لأننا لم نهيئ لها التربة الصالحة ولا الطقس الملائم ولا نستطيع سقيها بماء المكرمات، ثم نقول: نحن أقدم الحضارات، وأصل النيرات ومنبع الديانات، وكأن الحضارات تعني الخلافات، والنيرات تعني الجهالات، والديانات تعني المذهبيات والتطرفات.

المؤلف

(١)

رضاب... معلمة في إحدى مدارس الدورة الابتدائية، تعيش مع أمها وأختها الصغيرة في بيت صغير يملكونه في محلة المعلمين.

رضاب صبَّها الله في قالب ثم كسر القالب ، ليس لها مثيل : جمال ، أنوثة ، حياء ، طول كأنها نخلة باسقة ، حيوية كأنها مهرة عربية أصيلة، عيون سبحان المعبود، فم ينطف عسلاً... إنها عشتار وإيزيس وأفروديت اجتمعنَّ معًا... كل ما فيها خُطَّ بريشة فنان لا يقل براعة عن ليوناردو دافنشي ، وجسمها الممشوق ، وعنقها المشرأب ، وشعرها المسدول كأنها نخلة برحية من نخيل سومر... لو أدركها مايكل أنجلو لعمل لها تمثالاً وقال: هذه أفروديت الحقيقية.

تتردد كثيرًا على محل الصياغة الذي يملكه ويديره صائغ معروف في محلة السيدية في الشارع التجاري... ثقتها به مطلقة ، تحكي له كل شاردة وواردة ، راحتها النفسية عندما تزوره مساء كل يوم وترشف قهوتها وتفتح له قلبها وتنفّس عما في داخلها من هموم البيت والمدرسة والحياة... تكاد تعتبره الأب الروحي لها، تقول له: إنكَ تُشبه أبي في كثير من الأمور

وحقيقي إنكَ تشبه تمامًا فارس أحلامي ، إذا يحبني الله يهبني زوجًا فيه شيء منكَ.

وهو يحبها ويحترمها ويرتاح لرؤيتها ولكلامها ونطقها الجميل الذي فيه لثغة بحرف الراء.

راتبها يزيد عن حاجتها وحاجة أمها وأختها ، لأن لهنَّ راتب تقاعد أبيها رحمه الله وإيجار بيت مجاور لبيتهن مسجَّل ملك باسمها، مؤجر لناس طيبين بمائة دينار في الشهر.

أمها امرأة قنوعة ، مكتفية براتب زوجها التقاعدي وإيجار البيت، وتقول لابنتها: راتبك لكِ وحدكِ اصرفي على نفسكِ كما تشائين.

كل نهاية شهر تؤمِّن راتبها عند الصائغ وتأخذ جزءًا بسيطًا منه لأجل أمورها الخاصة كفتاة تحتاج إلى مكياج ولوازم البنات وأجور بسيطة بين الدورة والسيدية.

أحيانًا يعجبها حلية ذهبية فتشتريها ، فيبيعها لها بسعر الجملة بدون ربح يُذكر ، ويستقطع ثمنه من علبة الأمانات في الخزنة المسجلة باسمها... هكذا بمرور الشهور أصبح لها رصيد محترم وكمية من المجوهرات ؛ تتزين بقسمٍ منها ، والقسم الاخر مؤمن في علبة الأمانات العائدة لها.

صوتها شجي عندما تدندن أغاني "نجاة الصغيرة" عندما يوصلها أحيانًا في مساء الأيام الممطرة إلى بيتهم.

عرَّفته بأمها وأختها في البيت... أمها إنسانة رقيقة طيبة محتشمة تلبس السواد وعلى وجهها مسحة حزن عميقة، وأختها "سهاد" طير من طيور الجنة.

قالت لأمها عنه: هذا أبي الثاني الذي حدثتك عنه... فرَّحبت به الست الطيبة أجمل ترحيب ، وشكرته على اهتمامه بابنتها ، وشكت له من عدم رغبتها بالزواج ، ورجته أن يساعدها في زواجها من إنسان طيب مثله ترضى به.

- الله يهديكِ يا رضاب ببنتٍ هدية.
- يا أم رضاب، مازالت بنتك صغيرة وضروري يكون نصيبها من عريس ابن ناس ومالي هدومه وإنسان يليق بها ، إنسان مثقف وفي مركز مرموق.
- الله يفرَّح قلبك وقلبها.

يستأذن ، وتودِّعه رضاب لغاية باب البيت ، وتعده بالزيارة في الغد لأن إحدى معلمات المدرسة صديقتها تريد أن تشتري ذهب خطوبة لأختها.

- رضاب ، لا علاقة لكِ بالأسعار التي أبيعكِ بها لأنها لكِ وحدكِ، أنا لا أربح منكِ شيئًا.
- والله أعرف ذلِك ، يكفي أنكَ صادق وأمين وتنصحني دائمًا ، وأنا ممنونة منكَ.

في اليوم التالي تزوره في المحل كما وعدته...

- أستاذي العزيز ، أنا الودُّ ودِّي أن أتزوج من مصري جدع يقول لي "بحبك" ، وليس من عراقي يقول لي "أحبچ"... وفِي الحقيقة أنا معجبة بشاب مصري في محلتنا يعمل دوشمجي (منجِّد) تتلف أصابعه بِالحَرير ، عنده محل بسيط قرب "مخبز حيدر" في شارع المعلمين ، كل يوم أراه في ذهابي وإيابي للمدرسة وهو منهمك بالعمل... وغدًا سأجرِّب حظي معه وأزوره واتفق معه أن يعمل دوشمة لطقم قنفات غرفة الضيوف المستهلك والذي استحق التجديد ، وسأرى وأحكي لكَ التفاصيل.

تزور الدوشمجي "رياض المصري"، والذي يرافقها إلى البيت للفحص والمعاينة، ويتفقان على التكاليف، على أن تشتري هي القماش على ذوقها.

تكلّف رضاب الصائغ زهير أن يشتري لها القماش من شارع النهر بسعر الجملة وعلى ذوقه.

• • • •

تتوطد العلاقة بين رياض ورضاب من خلال زياراتها المتعددة له في المحل اثناء إنجازه دوشمة الطقم.

تخبر صديقها ومَثَلها في الحياة الصائغ زهير وترجوه أن يزور محل رياض ويتعرف عليه ويعطيها رأيه بالموضوع.

زهير الصائغ رغم عدم قناعته ولكن اكرامًا لها يلبِّي طلبها ويزور رياض في دكانه ويدَّعي أن لديه طقمًا يحتاج إلى دوشمة، ويتجاذب معه أطراف الحديث.

يفهم منه أنه خريج كلية التجاره جامعة أسيوط، وكان يعمل في مدينة "الحِلَّة" لثلاث سنوات مضت ، وانتقل منذ ستة شهور إلى بغداد وأجَّر هذا المحل، يعمل لحسابه، ويسكن مع أصدقائه المصريين في علاوي الحلة ، وأحيانًا يبات في المحل عندما يتراكم عليه العمل.

رياض شاب اسمر متوسط الطول ، معتني بهندامه ونظافته نوعًا ما ، حليق الوجه والشوارب، معتني بشعر رأسه اللماع... خفيف الحركة ، دقيق ، سريع العمل والإنجاز ، خيَّاط ماهر ويدق المسامير بخفة ودقة ويعرف كيف يخفيها بمهارة فائقة... حلو الحديث ، يختار كلمات مهذبة ، ويخلط الكلام بين اللهجة المصرية والعراقية بأدب جم ، كثير الاستخدام لكلمة "حاضر يا أفندم - حاضر يا باشا"... كثير التدخين ، يعمل وهو يدَّخن ، يملك علبة سكائر خاصة ، يخرج منها السكائر التي يدخنها ، ولا يقدم منها للضيوف ، بل يقدم من علبة السكائر الأخرى... يسأله زهير:

- لازم هذه سكائر خاصة.

- لا ، وإنما أحب هذا النوع من التتن المخلوط من نوعين من التبغ.

- ولكنك تدخن بشراهة، وهذا يضر بصحتك.
- أنا أدخن في اليوم ليس أكثر من عشرين سيكارة.
- ولكنها كثيرة يا أسطى رياض.
- نحن نقولها بالمصري "يا معلم رياض".

زهير يلاحظ ظاهرة أخرى على رياض : انتعاشه ورضاه وكأن الدنيا ملكه ، رغم الجهود المضنية والتعب والحركة المستمرة بين ماكينة الخياطة ودق المسامير الناعمة وشد القماش على الإسفنج والسهر في العمل.

خلال ساعة زمن كوَّن زهير فكرة بسيطة عنه ولكن ليس كاملة ويحتاج لعدة زيارات رغم عدم قناعته به ليكون زوجًا لرضاب التي يعتبرها بمقام ابنته.

في اليوم التالي رضاب في محل زهير...

- اسمعيني ، أنا شخصيًا غير موافق على زواجك من رياض هذا ، لأننا لا نعرف أصله وفصله ، وإذا حدث ما لا تُحمد عُقباه ؛ فمَن نُعاتب ؟!

- ونسأل مَن ؟!

- أرجوكِ يا ابنتي أن تعدلي عن هذا الموضوع ، وخذي بالك من نفسكِ واصبري قليلاً ، أرجوكِ... رضاب ، عندما كنتُ في روسيا لاحظتُ في مطار موسكو يافطة كبيرة كُتب عليها بالروسي : (لا تتزوجوا الغرباء ، فسرعان ما يرحلون)...

وهذا رياض رجل غريب جاء لبلادنا ليعمل ويستفيد ، وهو في كل الأحوال عامل بسيط لا نعرف حسبه ونسبه، ويدَّعي أنه خريج كلية التجارة من إحدى جامعات مدن صعيد مصر.

رضاب مقتنعة تمامًا برياض، ولم ينفع معها كلام زهير ولا كلام أمها ولا كلام صديقاتها المعلمات... أقفلت عقلها بالضبة والمفتاح، وصمَّمت على الزواج من رياض بقناعة واندفاع، ولم تقتنع بكل الناصحين لها وخاصةً قدوتها في الحياة زهير الصائغ الذي تستشيره في كل صغيرة وكبيرة.

سحبت صندوق الأمانة من زهير وفيه تحويشة العمر من الذهب والفلوس، وأجرت صيانة للبيت ملكها المجاور لبيتهم وأثثته بأحسن الأثاث ، كما اشترت لرياض محلاً أوسع وجهزته بمعدات حديثة للدوشمة والخياطة.

رياض يستعين بعمال مصريين ماهرين لمساعدته بالعمل وليتفرغ لشهر العسل.

تحدِّد رضاب يوم الزواج متحدية كل الظروف، وتطلب من زهير أن يكون شاهدًا ، فيرفض ذلك ويعتذر عن حضور مراسيم الزواج والفرح.

زهير يزعل عليها ويلومها ويؤنبها، ولكن دون فائدة.

• • • •

رضاب تقترن برياض ، ويسافران إلى شمال العراق لقضاء شهر العسل في العطلة الصيفية للمدارس.

بعد عودتها بأيام تأتي لزيارة زهير الصائغ وتسلّم عليه ، فلا يرد عليها السلام.

- ما هذا الجفاء ؟ وماذا عملت لكَ لكي تعادينا وتزعل علينا ونحن نحبكَ ونحب خاطرك.

- الله كريم يا رضاب ، ستعرفين بعد حين أني كنت أخاف عليكِ وتهمني مصلحتك ومستقبلك ، لكنكِ في لحظة تهور كسرتِ كل القيود ورميتِ نفسكِ في التهلكة.

- يا تهلكه يا بطيخ ؟ أنا سعيدة مع رياض وهو يحبني ويموت عليَّ.

- سنرى ، أنتِ تتحملين ذنبكِ ، وأنا نصحتكِ عن خبرة وتجربة. المهم ، ولو أني قررتُ أن لا أتدخل في شؤونكِ ، ولكن إياكِ أن تحملي من رياض حتى تتأكدي من حسن نواياه بعد سنة أو أكثر ، هذه وصيتي لكِ.

• • • •

تلاحظ رضاب شراهة تدخين رياض ، فتحاول باللُّطف وترجوه الإقلاع عن التدخين لأن الدخان يزعجها ، ولأن رائحة فمه ليست طيبة لا تستسيغها.

كذلك تلاحظ سرحانه، وزوغان في نظراته؛ رغم شطارته في عمله، وتبرِّر لنفسها أنه ربما يفكّر في أهله وبلده وأصدقائه...

- سأعتمد على إمكاناتي في تطوير رياض وإقناعه بترك التدخين أو التقليل منه على الأقل، ثم تركه.

بعد أسبوعين من شهر العسل يعودان إلى بيتهما ، فتستقبلهما أمها وأختها سهاد بالأحضان والفرح الغامر ، وبمائدة غداء شهية

(٢)

تمر الأيام والأسابيع... ورياض بدء يتأخر بالعودة للبيت عند المساء مبررًا ذلك بزحمة العمل وتراكم الطلبات وأن عُماله لا يمتلكون المهارة الكافية... رضاب تدفعها العزة بالنفس فلا تشكو إلى زهير لكي لا يتشفى بها ، ولكي لا تحدث مشكلة بين رياض وزهير ، فتتكتم على الموضوع وتخفيه حتى عن أمها.

تمر ثلاثة شهور ، ورياض لم يتغير فيه شيء ، لم يقلّل من التدخين ، ويتأخر كثيرًا في المحل لغاية ساعات متأخرة من الليل... كعادته بعد الساعة الثامنة يغلق المحل من الداخل بعد وصول شلة الأنس ويعمِّرون الأراكيل والجوزات الخاصة بشرب الحشيش ، وبعد الانتعاش يبدأ الغناء والطرب الشعبي على أصوله... يستاء الجيران من ذلك ، ويحذِّرونه عدة مرات ، دون فائدة ، فيضطرون للشكوى لمختار المحلة الذي هو الآخر يحذره ، ولكن أيضًا دون فائدة... فيضطرون للشكوى في مركز الشرطة الذين يأخذون عليه تعهدًا خطيًا بعدم تكرار ذلك وإلا اضطروا لغلق المحل بأمر قضائي.

بعد حين عدد من المعلمات يخبرنَّ رضاب صديقتهن بمشاكل رياض مع الجيران... تستغرب الموضوع ، وتذهب من المدرسة مباشرة للمحل ، فتجد رياض وعماله يعملون بجد

ونشاط، ولكنها تدخل المحل وتلاحظ المخزن فتجد عددًا من الأراكيل والجوزات التي تعرف أنها مخصصة لتدخين الحشيش من الأفلام المصرية، وكان في حينها يعرض في التلفزيون فيلم الباطنية المشهور بتعاطي الحشيش تمثيل نادية الجندي ومحمود ياسين وفريد شوقي... تندهش رضاب وتصاب بالرعب، لأنها تعرف أن عقوبة تعاطي المخدرات بأنواعها بالعراق الإعدام وليس غير الإعدام... فتحذره وتؤنبه وتطلب منه غلق المحل فورًا ومرافقتها إلى البيت قبل أن تحدث مصيبة.

يرافقها إلى البيت... وفِي البيت رضاب تصرخ وتبكي وتلطم الخدود، وأمها تصرخ: ماذا جرى؟ ماذا أصابكِ يا ابنتي؟... تحكي لأمها مصيبتها... ولكن رياض يعدهم أنه سيتوب ويترك هذه الشلة الوسخة...

- يا ناس حرام عليكم، عيد الأضحى بعد يومين، وكل شيء ينصلح، وأنا تبتُ إلى الله، والله عليَّ شهيد.
- اسمع رياض، واللهِ، ورحمة أبي؛ إن لم تصدق معي وتترك الحشيش وحتى شرب هذه السكائر التي بدأت أشك فيها، فأنا مضطرة للإبلاغ عنك، أنتَ تعرف عقوبة تعاطي المخدرات في العراق، ما فيها يمة ارحميني، وذنبك على جنبك.

يأتي عيد الأضحى... يستأذن رياض من رضاب ثالث أيام العيد للذهاب إلى "الحِلَّة" لزيارة ابن عمهِ لمدة يومين بمناسبة المولود الجديد.

• • • •

يمر اليومان ، ويمر أسبوع كامل ، ورياض لم يعد... فتذهب للمحل تسأل عنه... فتجد وجوهًا جديدة.

- ما الأمر ؟ وهل تعرفون شيئًا عن رياض؟

- من أنتِ؟!

- أنا زوجته.

- رياض باع لنا المحل بما فيه، وعاد إلى مصر ثالث أيام العيد أي قبل أسبوع.

تكاد تسقط من طولها ، ولكنها تتكئ على الحائط وتطلب قليلاً من الماء.

بعد أن تفوق من شدة الصدمة ؛ تسترد أنفاسها وتجرُّ الخُطى إلى البيت ، تفتح دولابها فلا تجد الفلوس ولا الذهب ، حتى أساورها وقلادتها التي تلبسها أحيانًا للزينة أخذها رياض ولم يُبقي لها شيئًا.

تبحث عن جواز سفره فلا تجده ، ولا تجد أوراق الزواج غير المسجلة رسميًا حتى الآن ، لأنهم نظموها على وجه السرعة

في مكتب من المكاتب المنتشرة في الكاظمية حول محيط ضريح الإمام الكاظم لتنظيم عقود الزواج غير المعترف بها رسميًا ومنها زواج المتعة وزواج المسيار وغيرها من الزواجات التي تروِّج لها هذه المكاتب كسبًا للمال ويديرها رجال يلبسون ملابس رجال الدين ولهم سجلاتهم الخاصة بهم ودلاليهم ووسطاؤهم والمروِّجون لهم والمنتشرون في المنطقة.

تجهش بالبكاء وتلطم وجهها وتشد شعرها ، وأمها وأختها تبكيان معها وتحاولان تصبيرها... أمها تلومها وتؤنبها، ولكنها تخاف عليها، فتهوِّن عليها الأمر وتقول لها:

- هو الخسران ، سيعوضك الله من هو أحسن منه ألف مرة... ماذا أقول وماذا أحكي، نصحتكِ فلم تسمعيني ولم تطعيني... نصحك الرجل الطيب زهير الصائغ عدة مرات فلم تسمعي كلامه... ماذا نعمل لكِ أكثر من هذا يا ابنتي؟. الله لا يرضى عليه هذا الكلب ابن الكلب، ناكر الجميل وناكر النعمة، مال وجمال. الله ينتقم منه ومن أهله هذا الحقير السافل الحرامي.

• • • •

بعد أسبوع من الحدث تأتي لزيارة زهير وحالها لا يسُّر، هزيلة تلبس السواد وقد عصبت رأسها، ومسحة حزن على وجهها، وهالة سوداء حول عينيها... وما أن جلست حتى اجهشت في البكاء.

- ما الأمر يا رضاب خوفتِني... أمكِ أصابها مكروه؟
- لا، لا... رياض الحقير سرقني وهرب.
- ماذا سرق؟
- سرق كل شيء: الفلوس والذهب وأوراق الزواج... لم يُبقي شيئًا... ضحكَ عليَّ ابن الكلب... أنا آسفة، لم أسمع كلامكَ... جئت أعتذر منكَ، وأرجوك أن تسامحني وتقف معي، فأنا ابنتكَ.

زهير يواسيها ويربت على كتفها... يغلق المحل ويذهب معها إلى شارع "أبو نواس" في أحد الكازينوهات على ضفاف دجلة ليطيِّب خاطرها.

- أنتِ لم تمنحيني الوقت الكافي لأسأل عن رياض هذا، وأنتِ تعرفين أن دراستي الجامعية كانت في مصر، ولي أصدقاء أعزاء فيها أفتخر بهم من عوائل مصرية محترمة، ومازالت صلتي بهم ممتازة، وكان من الممكن أن نستعين بهم للسؤال عن رياض هذا وأصله وفصله، وهل ينصحوننا بزواجكِ منه لأنكِ حقًا ابنتي العزيزة.. لكنك مع الأسف ركبتِ رأسكِ واستعجلتِ الأمور وركبتِ المركب الخطأ الذي أوصلكِ لِمَا أنتِ فيه الآن، فعليك أن تتحملي النتائج مهما كانت مُرَّة، وستخف مرارتها مع الوقت... كانت هذه رغبتكِ، وحذرتكِ من هذه المغامرة الخطيرة، ولكن إصرارك زعلني منكِ... وتفضلي هذه النتيجة... ولكن حافظي على رباطة جأشكِ

ومعنوياتكِ ، وأنتِ ضُفرك يساوي رياض وكل أهله... خلاص لا ينفعنا البكاء والألم... عليكِ أن تتماسكي وتبدأي من جديد، فأنتِ مازلتِ صغيرة وفُرص الحياة أمامكِ كثيرة.

- أنا أكرِّر اعتذاري منكَ، ولن أخالف لكَ أمرًا أبدًا، فأنتَ مثلي الأعلى في الحياة.

- سمعت منكِ مثل هذا الكلام من قبل، ومع هذا خالفتِني عندما نصحتكِ... المهم الآن أن تعودي للسكن مع أُمكِ وأختكِ وتقفلي بيتكِ وتحافظي عليه إلى أن نجد مخرجًا... وأرجو أن تهتمي بصحتكِ وأمكِ وأختكِ فهما بحاجة اليكِ ، وأنا عند عينيكِ ونبدأ من جديد ، والله يعوض الخسارة... والآن نعود للبيت.

أمها تستقبل زهير وتبكي...

- شفت ماذا فعلت بنفسها؟... رمت نفسها بالتهلكة.

- خلاص أم رياض فات اللي فات والله يعوض ، وعليكِ مسؤولية المحافظة على صحتها ومعنوياتها... الحمد لله لم تحمل منه وسمعت مني النصيحة.

- أي والله الحمد لله والشكر، قدَّر ولطف.

يهديها زهير خاتم وتراجي، وتعطيه هي حلقة الزواج التي هي أصلاً هدية من زهير.

رضاب راحتها وسعادتها عندما تزور محل زهير مساء كل يوم لساعة أو أكثر من الزمن، تشرب قهوتها المفضلة وتنفس عمَّا في داخلها من هموم، وتستأنس بأحاديث زهير... ثم تعود للبيت مكسورة الخاطر وقد خفتَ البريق الذي كان يشع من عينيها

زهير يطلب من صديقه المحامي المقتدر إبراهيم ان يتوكل عن رضاب ويقيم دعوة قضائية على هذا المجرم رياض، عسى ولعل الإنتربول يلقي القبض عليه.

وبالفعل رضاب تنظم وكالة أصولية للمحامي.

إبراهيم المحامي شاطر جدًا، يقيم قضية على رياض نجيب الأسيوطي، مصري الجنسية، ويتأكد أنه خرج من الحدود العراقية من طريبيل في أول يوم عيد الأضحى بتاريخ ١٩٨٦/٩/٢ إلى الأردن، وبتاريخ ٥ / ٩ / ١٩٨٦ سافر إلى ليبيا من مطار عالية في الأردن...يكمل كافة أوراق التحقيق والشهود.

- القاضي يصدر أمر إلقاء قبض ويرسل نسخة إلى الإنتربول، ولكن المشكلة أن رياض مجهول العنوان، ورضاب لا تعرف عنوانه حتى في مصر، كل الذي تعرفه اسمه وأنه من أسيوط. ورغم عدم قناعة الإنتربول بالبحث، لكنها تسجل لديهم قضية.

• • • •

تمرُّ الأيام والأسابيع... ومساء أحد الأيام يزوره في المحل أحد أقربائه المقربين واسمه "معد" والذي يودُّ زهير ويحبه، برفقة أخيه الأصغر منه "رعد"... يسلمان عليه بحرارة، ويتبادلون أطراف الحديث، ويعرف زهير أن رعد كان يعمل في ليبيا، ويتفاجأ أنه يعرف رياض المصري وأنهما كانا يعملان معًا في بنغازي عند الحاج صالح الهوادي عُمَّالاً بسحب الذهب، وأن رياض قد حكى له قصة زواجه في العراق وكيف ضحك على المعلمة والصائغ زهير واستغفلهما وسرق الذهب والنقود وهرب... وأنه عندما حكى لأخيه معد؛ طلب منه زيارة زهير وإخباره بالتفاصيل.

- رعد هل تعرف عنوانه؟

- طبعًا، أقول لكَ كنّا نعمل معًا ونسكن نفس البيت.

- الله يخليك أعطني العنوان.

- اكتب: بنغازي - سوق الجريد - الصائغ الحاج صالح الهوادي. وهذا تاجر معروف... أما عنوان البيت : بنغازي - حارة الغروب - زنقة ٢٤ - دار ٧٦.

يفرح زهير بهذه المعلومات ويسلمها إلى المحامي ويبشِّر رضاب بالمستجدات.

يتذكر زهير أن له صديق يعمل ملحقًا عسكريًا في السفارة العراقية في طرابلس العاصمة، فيتصل به ويرسل له رسالة

مع أمر إلقاء القبض وكافة الأوراق التحقيقية، ويرجوه أن يهتم بالموضوع ويتصل بالإنتربول هناك.

الملحق العسكري العراقي ضمن منهاجه لدية زيارة إلى بنغازي في الأسبوع التالي، يستثمرها، ويسلم أمر إلقاء القبض والعنوان عن طريق أصدقائه الليبيين إلى مديرية الشرطة التي تصدر أمرًا قضائيًا بإلقاء القبض على رياض الأسيوطي... فيتم حجزه أصوليًا.

يتصل رياض بأولاد عمه في مدينة الحلة ويرجوهم مساعدتهِ ويحوِّل لهم أربعة آلاف دولار كل ما يملك؛ حسب ما يدَّعي.

يتشاور زهير مع المحامي ومع الملحق بالتليفون، فينصحه الملحق بالموافقة لأنه مثلما توجد في العراق رشاوي فكذلك الحالة موجودة في ليبيا، فينصحهم أن يأخذوها من قصير ويستلموا المبلغ.

زهير يحاول إقناع رضاب وأمها بالموضوع لكي تتنازل عن القضية، وتكون قد عوضت سبعين بالمائة من المبلغ المسروق.

رضاب بغضب ترد على زهير وأمها:

- وأنا وما لحق بي من ضرر نفسي ومعنوي بليغ؟

فيؤنبها زهير، ويقول لها:

- الخطأ خطأك، والذنب ذنبك، وأنتِ تتحملين مسؤولية قرارك الخاطئ هذا، ولولا حسن الحظ ومعرفتنا بعنوانه والاستعانة

بالأصدقاء ؛ ماذا كنتِ تفعلين ؟! ، تضربين رأسك بأقرب حائط والسلام.

يستلمون المبلغ وأتعاب المحامي ، ويطلبون منهم ان يرسل رياض لهم بالبريد المستعجل والمضمون كافة أوراق الزواج التي نظمت في الكاظم مع إقرار من رياض بالتنازل عن كامل حقوقه المادية والمعنوية ، وكذلك إقرار بطلاق رضاب ، رغم أنه زواج غير أصولي وغير رسمي ، ولكن المحامي طلب ذلك من باب الاحتياط.

تصل كافة الأوراق المطلوبة خلال أيام قليلة جدًا.

المحامي يقنع القاضي بعد جهد جهيد بإخلاء سبيل رياض بكفالة لوجود الحق العام بعد تنازل رضاب عن حقوقها الشخصية.

رضاب وأمها يقدمان الشكر والامتنان إلى زهير ، فيرد:
- أنتم أهلي وهذه ابنتي ، وإن شاء الله يصير خير ، مع السلامة.

رضاب توصله إلى الباب وتطبع على خدهِ قبلة شكر ، فيقبِّل رأسها ويربت على كتفها... فتسارع لتقبيل يده ، لكنه يسحبها بسرعة.

- والله من غيرك أنا لا أساوي شيئًا.

- اذكري الله ، الناس لبعضها.

(٣)

يتردد على محل زهير شاب أنيق جميل الطلعة برتبة نقيب مهندس صديق ولده الكبير ، اسمه "حسن" من عائلة فلاحية تسكن منطقة الإسكندرية بين بغداد والحلة ، يملكون أراضٍ زراعية وأبقار وأغنام ، ولديهم مزرعة دجاج حديثة... حسن باستمرار يجلب إلى محل زهير أو إلى بيتهم الحليب ومشتقاته والدجاج لأنه صديقهم ويحبُهم ويرتاح لهم.

حسن يطلب من زهير أن يساعده بالزواج...

- طيب حسن ، عندما تجد الزوجة الصالحة أنا حلقات الزواج هدية مني مع خاتم جميل.
- عمي ، المشكلة أريدك أن تختار لي زوجة مثقفة متمدنة ، فأنتَ تعرف نحن فلاحون ، صحيح بخير ونعمة ، ولكن هناك صعوبة أن أجد زوجة تلائمني... أريد زوجة من أهل المدينة مثقفة واعية ، وبنفس الوقت جميلة ومن عائلة شريفة.

زهير يفكّر بعمق...

- اسمع حسن ، إذا عرَّفتكَ بفتاة جميلة جدًا ومثقفة ومن عائلة شريفة ، وأنا أعرفها وأعرف أهلها وهي بمقام ابنتي... ولكنها مطلقة...

ويحكي لحسن حكايتها بكل أمانة وصدق.

يتألم حسن لقصتها ويتهمها بالغباء.

- لا تستعجل الأمور يا ولدي حسن ، فذكاؤها مثل جمالها ، ولكنها هفوة يا ولدي دفعتْ ثمنها

- ولكن لا أعتقد أن يوافق أهلي على مطلقة... عمي عندها أولاد؟

- ابني أقول لكَ تزوجت لثلاثة شهور فقط؛ تقول لي عندها أولاد؟... من أين لها أولاد، طبعًا ليس عندها... لكن عندها أمها الطيبة وأختها المخطوبة والتي ستتزوج قريبًا... وعلى كل حال في الغد أرتب لكما لقاءً هنا في المحل، وبعدها اتخذ القرار المناسب... لا تستعجل الأمور يا حسن.

في هذه الأثناء تأتي رضاب كالمعتاد لزيارة زهير... فيرحب بها، ويقول:

- هذه ابنتي رضاب، وهذا ابني حسن.

ينبهر حسن بجمالها ورشاقتها وطولها ونبرات صوتها المعبرة وشخصيتها القوية وحيائها وحلاوة حديثها... فتدخل قلبه من أول نظرة.

تستأذن بالذهاب للصيدلية.

حسن يقبِّل رأس زهير...

- عمو، هذه ملاك، لم أرَ في حياتي أجمل منها ولا أكثر رزانة وقوة شخصية وحلاوة حديث.

ينصحه زهير:

- ابني لا تستعجل الأمور، فكّر على مهلك والتقيا هنا في محلي أكثر من لقاء، وشاور في الأمر، ثم قرَّر.

- عمي أنا لدي مشكلة واحدة: كيف اقنع أهلي بكونها مطلقة؟

- المهم أنتَ مقتنع؟

- والله عمي تريد الصدق... هذا الجمال، وهذه الأخلاق، وهذه الشخصية الفذة، وترشيحك لها وعائلتها البسيطة الطيبة... كلها عوامل مشجعة... أنا لوحدي مستحيل أعثر على زوجة بمواصفات رضاب... ولكن قل لي بربكَ هل أنا مجبر أن أقول لأهلي أنها مطلقة؟

- والله يا عمي إنها مظلومة، ظلمها هذا الكلب رياض.

- عمو، هي ظلمت نفسها.

- ولكنها لا تستاهل، لأنها عفيفة، شريفة، صادقة، أمينة، طيبة... وأنا أحبها وكأنها ابنتي، ولكن ماذا نعمل للحظ؟... الحمد لله قدر ولطف، والضرر محدود.

حسن يشاور عقله، ويأخذ وقتًا كافيًا، لكنه مقتنع تمامًا برضاب زوجةً له... ويتذكر طُرفة جميلة عندما ارتبط صديقه جمال بفتاة روسية جميلة جدًا، ونصحه بالابتعاد عنها وعدم الزواج منها لأن لها علاقات سابقة مع شباب آخرين، فردَّ عليه رَدًا

سخيفًا ، قائلاً : الإنسان يأكل عسل مع الناس أحسن مما يأكل خرا لوحده.

حسن يكلّم نفسه، والله سآكل العسل مع رضاب لوحدي لعفتها وشرفها... وزواجها من رياض هفوة غير مقصودة (لكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة) ، وليس المهم ألا يكبو الإنسان، ولكن المهم أن ينهض بسرعة من هذه الكبوة ، ورضاب نهضت وواقفة على قدميها بثبات وعزيمة.

لقد اتخذ قراره وعقد العزم وانقضى الأمر... أما أهله فهو مضطر أن لا يخبرهم أنها مطلقة.

يفاتح أمه أولاً ويقنعها، فتكاد تطير من الفرح... ثم ينفرد بأبيه ويخبره برغبته بالزواج وأنه وجد بنت الحلال ويتمنى مباركته...

- فرَّحت قلبي حسن، الله يفرَّح قلبك.
- أبي ، دعني اضبط الأمور وتزورهم أمي أولاً قبل الذهاب رسميًا لخطبتها من أمها.
- وماذا عن أبيها؟
- أبوها متوفى ، الله يرحمه ، وليس لها سوى أمها وأختها الأصغر منها ستتزوج قريبًا لأنها مخطوبة.

• • • •

حسن كالعادة يتردد على محل زهير في مواعيد قدوم رضاب للمحل يوميًا، تقريبًا بين الساعة الرابع لغاية السادسة... وزهير يبذل جهودًا لزيادة الروابط بينهما وتعزيزها، وباستمرار يذكر محاسن حسن لرضاب ومحاسن رضاب لحسن.

حسن وأبوه يزوران زهير في المحل، وفي هذه الأثناء تأتي رضاب وأمها وأختها للمحل... زهير يحدِّث أبا حسن:

- هؤلاء أهلي وهذه رضاب بمثابة ابنتي.

فينظر إلى حسن...

- نعم بابا هذه رضاب.

ينبهر الأب بجمالها وأدبها وحيائها وطولها الممشوق... ويهمس في أذن ولده:

- والله يا حسن أحسنت الاختيار، يسلم ذوقك... لا، أبو حسن متزوج من شرطي صار له ثلاثين سنة... حسن، رحمة لأهلك زوجني أمها.

أبو حسن يحب المزاح... فيضحك الجميع... وتدعوهم أم رضاب لشرب الشاي في البيت بعد أن يغلق زهير محله.

- لا، يوم الجمعة أنتم وزهير وعائلته مدعوون عندنا بالعرب في الإسكندرية.

فيتفق الجميع على ذلك.

يوم الجمعة الساعة الحادية عشر صباحًا ، حسن وزهير عند باب بيت رضاب... يستقل الجميع سيارة حسن ويذهبون للإسكندرية ، فتستقبلهم أم حسن وأولادها وبناتها أحسن استقبال... أم حسن تكاد لا تصدِّق عينيها...

- ما هذا الجمال، ما هذه الرشاقة... ماما حسن، هذه ملاك من الملائكة.

يتناولون الغداء ، ثم يتجوّلون في المزرعة... تملأ أم حسن صندوق السيارة شيئًا من خيرات المزرعة، ويودعونهم بأحلى الكلام.

• • • •

زهير يقنع رضاب وأمها ببيع الدارين في الدورة وشراء بيت جميل في السيدية قرب إعدادية البنات قريبًا من الشارع التجاري، والسعي لنقل رضاب إلى إحدى المدارس الابتدائية في السيدية وعدم التردد على الدورة مستقبلاً وإنهاء الموضوع وعدم تعقيد الأمور.

يتكفل زهير بحل مثل هذه الأمور البسيطة ويبيع دارهم الرئيسيّة في الدورة ويضع مبلغ الأربعة آلاف دولار فوقه ويشتري لهم دارًا جميلة مساحته أربعمائة متر حديث البناء فيه حديقة جميلة وثلاث غرف نوم وصالة ومطبخ وحمام جيد، أي

أفضل من بيتهم في الدورة بكثير ، ويترك البيت المسجل باسم رضاب مؤجرًا تحسبًا للمستقبل... يكمل مبلغ البيت الجديد من ماله الخاص على أن تسدده له مستقبلاً رضاب من راتبها على مهلها بالتقسيط المريح.

يتزوج حسن ورضاب بهدوء ، وبمباركة أهله وأمها وأختها ، ويسهل لهم زهير كافة الأمور... وبحفل بسيط في الإسكندرية يتكفل به أبو حسن... يسافر بعدها حسن ورضاب إلى المناطق السياحية في أربيل ودهوك لقضاء شهر العسل لمدة أسبوعين.

يشتريان بعض هدايا وتحف بسيطة للبيت ويعودان مسرورين إلى بيتهم في السيدية...

عند المساء يتوجهان لزيارة زهير فيجدان المحل مقفلاً ، فيستغربان الأمر ويسألان المحلات المجاورة فيخبرونهما أن المحل تعرض لهجوم مسلح من قِبل عصابة من خمسة أشخاص وسرقوا كافة مصوغات المحل وهربوا...

- وزهير ؟!

- إنه بخير لأنه لم يكن وقتها بالمحل، بل كان ابنه الكبير ، الذي ضربوه بأخمس المسدس على رأسه، ولكنه بعد تلقي العلاج حاليًا في البيت... لكن زهير حالته النفسية سيئة جدًا ، ومشغول بمراجعة مركز مكافحة الإجرام للوصول لنتيجة.

يبتئسان ويتألمان للحادث... المهم أنهم سالمين، المال يعوَّض.

يذهبان للبيت ، فيجدان زهير... تبكي رضاب ، وحسن تدمع عيناه... ولكن زهير يطمئنهما ويشد على يديهما.

يعرض حسن على زهير أي مساعدة ممكنة، وتعرض رضاب إمكانية بيع بيت الدورة والاستفادة من فلوسه.

زهير يشكرهما ويبشرهما أن هناك أمل بإلقاء القبض على العصابة لأن مكافحة الإجرام أمسكت برأس الخيط ، والموضوع متابع من قبل دوائر الدولة العليا.

زهير يقدِّم طلبًا إلى رئاسة الجمهورية يعرض قضيته، بعد أن تعب من مراجعة الشرطة والداخلية : وعود ونصب وحيلة وابتزاز ورشاوى (زود الغرقان غطة) كما يقول العراقيون... مدير مكافحة اليرموك في حينها نصاب ويحاول ابتزاز زهير... ضابط التحقيق ملازم اول مرتشي وكذاب.

بعد أسبوع زمن وبوساطة متمكنة ؛ يُحدد له مقابلة مهمة مع مسؤول كبير بالدولة... يطلع على الأوليات ويكلف ضابط برتبة عميد يعمل في مكتبه بمتابعة الموضوع مع وزير الداخلية... زهير يشرح الأمور للسيد الوزير... تضيع الأمور على الوزير بين التليفونات والمراجعات المستمرة وكلام زهير فتختلط عليه الأمور ويشكو من وجع الرأس، فيرد عليه القس الذي كان موجودًا في مكتبه عند دخول زهير :

- سيادة الوزير ، من يريد أن يصبح رأسًا ؛ عليه أن يشبع وجع راس... وهذا حال الدنيا.

- صدقت أبونا.

يتصل السيد الوزير بمدير الشرطة العام ويطلب منه الاهتمام بموضوع زهير ، ويقول لزهير : اذهب لمدير الشرطة فهو في انتظارك

يذهب زهير إلى مدير عام الشرطة ويحكي له الحكاية...

- نعم، نعم، هذه العصابة دوختنا، عصابة الكابرس الماروني.

- نعم أستاذ ، كانوا يستخدمون سيارة كابرس أمريكية لونها ماروني، وهذا رقمها...

- ليس مهمًا الرقم، لأنهم يغيرونه بسهولة.

مدير عام الشرطة يكلّف ضابط برتبة عميد من مكتبه ويطلب منه متابعة الموضوع ومرافقة الصائغ زهير إلى مكافحة اليرموك للتنسيق مع مدير المكافحة.

العميد المكلف يحدد لزهير موعدًا للقاء في العاشرة من صباح اليوم التالي في مكتب مدير المكافحة.

يلتقيان صباحًا على إفطار أعدَّه مدير المكافحة...

- اطمأن أستاذ زهير فلقد ألقينا القبض على العصابة وبحوزتهم الذهب وسلمناه للأمانات... أين ملازم أول علاء؟...

- نعم سيدي.

- اجلب الذهب من الأمانات.

- سيدي، مسؤول الأمانات مجاز ثلاثة أيام لأن زوجته ولادتها متعسرة في مستشفى الكرخ.

- طيب، مع السلامة أنت زهير وراجعنا بعد ثلاثة أيام لاستلام الذهب.

تمر الأيام الثلاثة، ويراجع زهير مدير المكافحة فيجد ضابط آخر مكانه برتبة رائد...

- خيرًا؟

- أنا الصائغ زهير، ولدي اليوم موعد مع السيد المدير لاستلام الذهب.

- أخ زهير، أولاً السيد المدير السابق نقل إلى مكافحة الدورة، وأما الذهب فهو ليس لكَ وإنما للحاج مصلح تاجر قماش في البياع.

- وماذا أفعل أنا الآن؟

- نسِّق أمورك مع ضابط التحقيق علاء.

- إذن عادت الأمور للبداية.

••••

حسن ورضاب يبيعان بيت الدورة ويعطيان الفلوس إلى زهير الذي يزعل عليهما ويأنبهما.

زهير يستلم المبلغ، وفي اليوم التالي يشتري شقة سكنية في السيدية ويؤجرها لمدة عام لأصدقاء مؤتمنين ويقبض إيجار سنة مقدمًا ويسجل الشقة باسم رضاب بدلاً عن بيتها الذي باعته لأجل خاطره.

- هذه الفلوس مقبولة وهي سلفة دين بذمتي لكِ يا رضاب.
- لا، لا... هذه مساهمتنا أنا وحسن.
يقبِّلان زهير
- ومع هذا، فالشقة رهن إشارتك متى ما تحب بيعها.

يتمكن زهير بواسطة صديق يحبه من مقابلة رئيس الجمهورية... ويقص علية الحكاية، فيصدر أمرًا إلى المخابرات بإلقاء القبض على العصابة خلال أربعة وعشرين ساعة... وفعلاً في نفس الليلة يتم إلقاء القبض على العصابة ويتم التعرف عليهم... ولكن دون فائدة، فليس هناك غرام واحد ذهب... ادعوا انهم تقاسموه وكل واحد باع نصيبه... وهنا بدأ التحقيق الجدي لمعرفة أين باعوا الذهب. واتضح انهم باعوه على صاغة الكرادة والكاظم والشعب.

تمكن زهير من إعادة سبعين بالمئة من الذهب المسروق مع بعض المشاكل والتهديد والوعيد... ولكن بشكل عام النتائج إيجابية نوعًا ما.

صديق عزيز إلى زهير يعلمه تليفونيًا أن جاره اشترى مصوغات ذهبية كثيرة من امرأة وابنتها الشابة بسعر بخس بعد أن رفض هو شراءها لأنه أحسَّ أنها مسروقة ، ويصف هذه المصوغات لزهير... فيذهب زهير إلى الكرادة داخل ويتفاهم مع الصائغ المعني دون فائدة... فيضطر إلى إبلاغ مكافحة الإجرام التي بدورها ترسل مفرزة ومعها أمر بالتحري والتفتيش... وتعثر على كمية من الذهب مخبأة بعناية... يتعرف عليها زهير ويؤكد أنها تعود له... فينظم بها محضرًا أصوليًا وتوزن وتوصف وتحفظ لدى ضابط التحقيق.

يحاول زهير التفاهم مع الصائغ دون فائدة... كمية الذهب تساوي بسعر البورصة حوالي ستة ملايين دينار في ذلك الوقت والصائغ يدعي انه اشتراها بمليون دينار... ويتدخل عدد من الأخيار من الصاغة لحل الإشكال ، بأن يدفع زهير المليون دينار للصائغ ويستلم الذهب وبدون مشاكل... وعندما يعاد المليون له من المحكمة يسلمه إلى زهير... ولكن لم يتمكنوا من إقناع هذا الصائغ المتزمت الذي يضحك عليه أحد ضباط الشرطة برتبة عالية ويبتزه ويعده بإعادة الذهب إليه... لكن قاضي التحقيق يقرر تسليم الذهب إلى الصائغ زهير وينتهي الموضوع.

زهير يعيد مبلغ ايجار الشقة السنوي الذي استلفه إلى رضاب مع الشكر والتقدير... ولكن يحدث ما لم يكن في الحسبان...

(٤)

يُنقل حسن إلى الجبهة بالخطوط الأمامية في جبهة الفيلق السابع في العمارة... يلتحق خلال أربعة وعشرين ساعة ويوصي زهير خيرًا بعائلتهِ.

نقيب حسن في الجبهة في مكان خطير ، وهذا اللواء تعرض لعدة هجومات متكررة وقدَّم ضحايا كثيرة وكبيرة.

بعد شهرٍ دامٍ من المعارك على الجبهة بين كَر وفر يعود حسن بأجازة لمدة خمسة أيام ، متعبًا هزيلاً ووجه شاحب... ويحكي لرضاب وزهير كيف ينامون في الملاجئ الرطبة ، وعن حجم القصف عليهم ليل نهار ، وعن الضحايا ، وانعدام الخدمات ، وقلة الطعام ، والخوف والسهر ، والترقب والتوجس من أي هجوم ليلي مباغت... الكل خائفون ومرعوبون في الجانبين... وهناك قصف عشوائي مستمر... واحتمال قوي القيام بهجوم واسع على مستوى الفيلق على طول جبهة الفيلق في الأسبوع القادم ، والله الستَّار.

تجري الأيام بسرعة ، وحسن يستنجد بزهير لإمكانية نقله إلى الخطوط الخلفية وبأي ثمن... وزهير في حيرة من أمره ، لا يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف ، والشعار يقول: كل شيء من أجل المعركة.

يعود حسن إلى الجبهة بعد أن تنتهي إجازته، تودِّعه رضاب بالدموع والخوف من المجهول، وهي تقرأ يوميًا مئات اليافطات تملأ الشوارع بأسماء الشهداء المساكين... يا الله احفظ ليَّ حسن ونجيه من هذه المِحنة.. وتلح على زهير: ليس لي غير الله وأنت، اعمل أي شيء، لو حتى تعطيهم البيت مقابل نقل حسن إلى مكانٍ آمن.

• • • •

يتعرض لواء حسن لهجوم مباغت من قبل الإيرانيين، ويختلط الحابل بالنابل، وتسقط مواقع اللواء وخطوطه الدفاعية واحدًا تلو الآخر بسبب زخم الهجوم العالي والواسع... ولكن الفرقة تقوم بهجوم مقابل بعد أن عززها الفيلق بقوات من الاحتياط وبقوات ساندة، تتمكن من إزاحة الإيرانيين واسترجاع مواقع اللواء الذي تكبَّد خسائر بالغة في المعدات والأفراد.

يتم جرد الخسائر في اللواء، فيُسجل حسن ومجموعته من ضمن الخسائر باعتبارهم راس النفيضة في خط الدفاع الأمامي الذي سُحق في بداية الهجوم... هناك جثث كثيرة مشوهة تمامًا لا يمكن التعرف على أصحابها، والمراتب والضباط يخمِّنون: هذا فلان وهذا فلان، حسب المفقودين... وأحدهم يدَّعي أن هذه الجثة المشوهة هي جثة النقيب حسن، فيُكتب على التابوت: نقيب حسن فاضل التميمي... عنوانه السيدية الشارع التجاري

مقابل إعدادية أسماء للبنات (محلة ٨٢١ ز ٢٦ دار ٥١)... مختار المحلة الحاج عبدالله محسن الجبوري.

تُرسل الجثة مع مأمور، وتُسلَّم لمركز شرطة البياع أصوليًا.

يأتي شرطي إلى بيت حسن يوم الجمعة مساءً في تمام الساعة الرابعة، فتخرج له رضاب، وبدون مقدمات يسألها:

- ماذا تقربين إلى الشهيد النقيب حسن فاضل التميمي؟

تتمتم بكلمات مبهمة، وتسقط على الأرض... تسرع إليها أمها وأختها، فيخبرهما الشرطي أن النقيب حسن أُستشهد وجثمانه في مركز شرطة البياع، ويطلب منهما أن يأتي معه من يستلم الجثمان...

تصرخ الأم والابنة صرخة واحدة وتلطم خدودها، وترى رضاب متمددة في باب الدار وقد انكشفت ساقاها، فتسارع إلى سحب ثوبها وتسترها وهي في حالة هستيرية...

- يا ميلة حظك يا رضاب، يا بختك الأسود يا رضاب... إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

تتعاون الأم مع ابنتها على سحب رضاب لغرفتها، وترش على وجهها قليلاً من الماء

يتجمع الجيران أهل الغيرة والحمية... وتكلّف الأم ابن الجيران بالذهاب لمحل زهير لأخباره باستشهاد حسن وضرورة استلام جثته من مركز شرطة البياع...

- خالة، اليوم جمعة.

- هو يفتح محله مساء الجمعة.

على وجه السرعة يأتي زهير وهو يبكي...

- ما الخبر أم رضاب؟!

- مصيبة... حسن أُستشهد.

- أين رضاب؟

- مغمى عليها في غرفتها.

- يجب أن ترافقيني لاستلام الجثة... يجب أن يستلمها أحد أقربائه.

يحاولان إنعاش رضاب برش الماء وتدليك يديها ورجليها، وينفخ زهير في وجهها دون فائدة، فيضطر لتدليك صدرها والضغط على الحجاب الحاجز بقوة والنفخ في فمها.

- أخي زهير، أنتَ أبوها أرجوك لا تتحرج... المهم إنقاذها.

فيشق زهير زيقها وينبهر بجمال وروعة نهديها كأنهما صنمان عاجيان... يدلك صدرها وينفخ في فمها عدة مرات... فتفتح عينيها، ترى زهير فتتعلق برقبته وتصرخ بصوتٍ مبحوح... زهير يبكي وهي تبكي وأمها وأختها... والشرطي مازال واقفًا بالباب وسط الناس ينتظر.

أمها تلبسها ثوبًا جديدًا وتزرر صدرها وتجلسها على حافة السرير وتعطيها قليلاً من الماء... تشرق رضاب بالماء وتكاد

تختنق ، فيسارع زهير بالضرب على ظهرها وإيقافها ، ولكنها تخرُّ من بين يديه على الفراش ، فينكشف فخذيها ، فيسارع إلى سحب البطانية وتغطية جزء من جسمها.

يكلّف زهير أختها سهاد والنسوة الجيران بالعناية برضاب ومواساتها... وبرفقة أم رضاب وعدد من رجال الجيران النشامى يذهبون إلى مركز الشرطة لاستلام الجثمان.

تابوت خشبي عادي مستعمل مكتوب عليه : الشهيد البطل النقيب حسن إبراهيم التميمي - أُستشهد في قاطع العمارة.

يستلم زهير شهادة الوفاة ويوقّع على الاستلام ، ويخبرونه أن التابوت محكم ولا يجوز فتحه لأن الجثة مشوهه وغير واضحة المعالم.

ينصح الرجال كبار السن زهير بأخذه إلى الجامع لأن الليل أرخى سُدله والصباح رباح... لكن المختار يقول: إكرام الميت دفنه.

يتفق الجميع على نقل التابوت إلى الجامع وتكليف إمام الجامع بحراسته، ويتبرع اثنان من شباب الجيران بالمبيت بالجامع.

يعود زهير وأم رضاب للبيت... تستقبلهما رضاب بالصراخ والعويل وقد مزّقت ثوبها ونتفت شعرها ولطمت خدَّها ، وترتمي في حضن أمها التي تسترها بعباءتها.

زهير في حيرة من أمره... رضاب تصرخ ، تريد أن ترى حسن ، أين حسن ؟ لماذا لم يأتي معكم حسن ؟... وزهير مغرورقة عيونه بالدموع وليس هناك كلام يقوله سوى البكاء.

تمرُّ الساعات ثقيلة قاتلة... ينسحب بعض الجيران ، ويجلس البعض في غرفة الضيوف يرتبون أمور دفن الجثة في الصباح... لساعة متأخرة من الليل ينسحب الجيران شيئًا فشيئًا ، ويبقى اثنتان من النسوة من صديقات أم رضاب ، وزهير واثنان من الرجال ؛ حتى خيوط الصباح... يغالبون النعاس بشُرب الشاي والقهوة.

تطارد جيوش النهار فلول الليل وتنتصر عليها ، فيبزغ الفجر ، وتنتشر خيوط الضوء وينبلج الصباح.

يتجمع أصدقاء زهير وأهل حسن الذين روَّعتهم المصيبة الجلل بفقدان ابنهم حسن الغالي على قلوبهم... ويصرُّ أبو حسن على نقل الجثمان إلى الإسكندرية لغرض إجراء المراسيم الدينية وغسل وتكفين حسن طبقًا للأصول... يحاول زهير إقناعه بأن التابوت محكم والجثة مشوهة...

- ماذا تقول يا زهير ؟... يبدو أنكَ جُننت وأنا لا أعرف... الله أكبر ، حسن ابنك ، هل نسيته ؟... كيف تقبل أن يُدفن دون جفن... أخ صدام راح الصغير والآن الكبير... الله أكبر ، الله أكبر... بقى عندي فقط البنات... لا الله يرضى ، ولا عباده.

يرمي أبو حسن نفسه على التابوت المغطَّى بالعلم العراقي ويضرب على رأسه ويصيح بعالي الصوت:

- حسن، يا حسن... ابني حسن وين رايح؟ لماذا تركتني، ماذا عملت أنا يا إلهي بهذه الدنيا؟ لماذا تنتقم منا بهذه القسوة؟ أي ذنب ارتكبتُ لتعاقبني بهذه القسوة؟ لا إله إلا الله، لا إله إلا الله.

يمسك زهير ويحتضنه ويبكي بمرارة...

- هذه هي الدنيا، ماذا بأيدينا يا أبا حسن؟

- ما علاقة الدنيا زهير؟... هذي بلاوي الحرب، هذه مصائب الحرب... ما قيمة حياتي بعد أولادي؟... إذا أعدموني أراحوني من هذا العذاب.

يحاول زهير تهدئة أبا حسن ومنعه من كلامٍ يضر ولا ينفع...

- أبو حسن، لو أن هذا الكلام يعيد لنا حسن لكان خيرًا... لكن هذا الكلام يودينا في داهية، وأنت تعرف.

••••

ينتقل الجميع إلى بيت أهل حسن في الإسكندرية، يتجمع الأهل والأقرباء وبنو تميم وأعلامهم الزاهية الملونه، ويبدأ الرجال بالهوسات ورمي الإطلاقات النارية، وتشتد غرغشة حركة

البيارق... الكلاب تنبح والأبقار ترغي والخيول تصهل ، والرجال يبكون والنساء تلطمنَّ ، والجميع ينوحون على الفقيد الغالي الشهيد حسن.

تُنصب السرادق... والتابوت في غرفة الضيوف... ورئيس العشيرة وإمام الجامع يؤكدان على أبي حسن بضرورة الإسراع في الدفن ، "إكرام الميت دفنه"... وأبو حسن يصر على رؤية ولده قبل وداعه الأخير ، وتؤيده رضاب وترجوه وتتوسل إليه:

- عمو ، فدوة أروحلك، إذا ما أشوف حسن أموت، والله أموت، وخطيتي برقبتك..عمو ، لخاطر الله أشوف حسن ، فدوة أروحلك اشوف حسن... آه يا حسن، ليش عفتني يا حبيبي؟.

أبو حسن يستنجد بإخوته وأولاد عمومته ويطلب منهم فتح التابوت... يحاولون ثنيه؛ ولكن دون فائدة.

يفتحون التابوت بجُهدٍ جهيد ، فيجدون جثة ممزقة ممسوحة المعالم ورأسًا مهشمًا ويدًا مقطوعة والرجل اليسرى مفقودة ، والملابس ممزقة ومنقوعة بالدم الأحمر القاني...

يصرخ أبو حسن وأعمامه:

- الله أكبر ، الله أكبر... هذا كل ما تبقى من حسن.

ويقع الأب والأم ورضاب مغشيًا عليهم حول التابوت.

يصرخ بهم إمام الجامع وشيخ العشيرة:

- أغلقوا التابوت لنتمكن من تكفينه... ضعوا الكفن فوق الجثة وضعوا الكافور وبسرعة لنذهب إلى مقبرة أبي غريب ونعود قبل مغيب الشمس... الهمَّة يا رجال... اذكروا الله كثيرًا وسبِّحوه كثيرًا ، بكرةً وأصيلا... الله أكبر ، الله أكبر... لا إله إلا الله.

• • • •

- أبو حسن، أنتَ رجل مؤمن، وهذه أقدار الدنيا.

- والله يا شيخ هذه أقدار صدام... الله وكيلك هذه أقدار صدام... كل البلاوي ترمونها برأس الله ، الله قال لكم حاربوا ؟... صدام بدوي ويحب الحرب، شنو دخل الله بالموضوع؟

زهير يضع يده على فم أبي حسن ويرجوه أن يهدأ حتى لا يتسبب لهم في مصيبة أخرى...

- أبو حسن أرجوك، أبوس إيدك، بس اهدأ شوية الله يخليك.

- الله لا يخليني ، الله يموتني مع ابني حسن وأخلص من هذا العذاب... شنو عيشتي يا زهير بعد حسن؟

ينظمون السرادق ويوقدون الموقد ويوزعون القهوة والشاي على الحضور ويبدأ المقرئ بتلاوة آيات من الذكر الحكيم... فتهدأ النفوس نوعًا ما وتستكين.

(٥)

تمرض رضاب... الوردة الجميلة المفتحة ؛ ذبلت ، وحلقة الزواج أخذت تسقط من إصبعها... لا تتذوق طعم الزاد، والماء مُرٌّ في فمها... أفكارها مشوشة ، ينتظرها مصيرٌ مجهول ، الدنيا أظلمت في وجهها ، تسمع أصوات نشاز لا تفهمها ، رائحة جسمها بدأت تزعجها ، تشعر بدوار وعدم شهية حتى لشرب الشاي وتقيء باستمرار مع مغص مؤلم ، فتقرر أمها اصطحابها للطبيب في مدينة الحلة... يأخذهما خال حسن الذي يسكن الحلة ، ويقترح على أمها استشارة طبيبة أمراض نساء لأن الدورة انقطعت وتأخرت عنها أكثر من أسبوع...

بعد الفحص والتحاليل تخبرها الطبيبة أنها حامل في الشهر الثاني، وعليها أن تهتم بنفسها...

- مبروك...
- دكتورة الله يخليكِ ، يا مبروك ؟ سيولد الطفل يتيمًا ، أبوه اُستشهد هذا الأسبوع.
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون... هذه حبوب مقوية يعني فيتامينات، وهذه حبوب لوقف القيء تأخذينها قبل الطعام بنصف ساعة،

وهذه حبوب مهدئة، وهذا مُنوِّم، وضروري الراحة التامة... وتراجعينني بعد أسبوعين.

- دكتورة، نحن نسكن بغداد، ولكن ظروف مجلس العزاء في الإسكندرية قُرب الحلة.

- المهم، ضروري مراجعة طبيبة أمراض نساء باستمرار لمراقبة الحمل وصحتك وصحة الطفل... مع السلامة.

في الطريق تقول رضاب لأمها:

- ماما، إذا رزقني الله ولدًا سأسميه حسن، وسأحيا من أجله وعلى ذكرى حسن.

- ماما رضاب، الله يقطع من هنا ويوصل من هنا، وهذا حال الدنيا يا ابنتي.

تعودان للبيت، وتبشِّران أم حسن وأباه أن حسن الصغير قادم في الطريق...

يرد أبو حسن:

- ما دام صدام موجود لا يلحكلها حسن ولا حسين.

• • • •

تنقضي ثلاثة أيام من الهمّ والغم واللطم ، ويعود كل حي إلى بيته.

وبعد أسبوع وانقضاء مجلس الفاتحة على عادات أهل الريف؛ تعود رضاب وأمها وأختها مكسورة الخاطر مع زهير إلى بيتهم في السيدية.

يخفّف دوام المدرسة شيئًا من المأساة على رضاب وكذلك المعلمات وزيارة الجيران والأصدقاء... وتعود لزيارة محل زهير كل مساء لفترة وجيزة.

يمر أسبوعان ، وشيئًا فشيئًا ؛ تحاول رضاب تمشية الأمور واستيعاب الحادث الجلل ، وتعتكف أحيانًا في غرفتها وعينها شاخصة على صورة حسن ، تجهش بالبكاء إلى أن ترتاح نفسها ويهدأ خاطرها ، فتمسح دموعها التي تكوي خدودها الناعمة البضة التي كواها الحزن وأخذ شيئًا من نظارتها.

مساء الجمعة وصديقاتها المعلمات في زيارة لها في البيت يخففنَّ عنها وطأة الحزن؛ تسمع طرقًا على الباب فتذهب لترى من الطارق ، تفتح الباب فتجد شبح حسن في وجهها... تصرخ وتسقط مغشيًا عليها... تسرع أمها وأختها والمعلمات فيجدنَّ حسن جالس القرفصاء ورضاب في حضنه يحاول إسعافها... ويطلب قدح ماء.

أمها تُصاب بالذهول والخوف، وأختها تصطك أسنانها وتقف لغة الكلام عندها، والمعلمات في دهشة مما يحصل.

ينقلون رضاب إلى فراشها ويحاولون اسعافها، فتجلس وشبح حسن بجانبها... تمد يدها بتوجس إلى وجه حسن وتلمسه تمسح عينيه وتمسك أنفه وتحرِّك شفتيه...

- يا إلهي، هذا حسن، إنه هو بلحمه وشحمه... هل أنا في حلم أم علم ؟!

- رضاب، أنا حسن، والله أنا حسن، صدقيني أنا حسن... ماذا حصل؟ ماذا بكِ حبيبتي؟

تخنقها العبرة فتبكي بصوت مبحوح... فيرتمي حسن على صدرها وهو يبكي بنشيج مسموع ويُبكي الآخرين معه في هذا الموقف المؤلم الصعب.

يُطرق باب الدار، تفتحه أخت رضاب... فتجد زهير ومعه أكياس من الفاكهة والخضار...

- عمو زهير، حسن هنا.

- أي حسن؟

- والله عمو، حسن هنا.

يدخل زهير فيجد حسن أمامه... تسقط الأكياس من يده وتنتثر... يحضن حسن ويتعالى الصراخ ممزوجًا بالبكاء والهلاهل، والدموع؛ دموع الفرح الحزينة، امتزجت دموع الحزن بدموع

الفرح... لحظات مجنونة ، العقل غير قادر على استيعابها وتحليلها والاقتناع بها بهذه السرعة المجنونة.

- حسن الله يخليك قبِّلني ، حسن حبيبي اقرصني ، حسن روحي عضني الله يخليك... لأتأكد أنك حيٌّ تُرزق.

رضاب ترمي نفسها على حسن ، وكذلك أمها وأختها وزهير ، والكل يبكون.

زهير بين دهشته ؛ يريد أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود:

- حسن حبيبي ، حدثنا أرجوك ، نحن في صراع نفسي داخلي بين الحقيقة والخيال... أرجوك ، احكي لنا بالتفصيل ، مازلنا في حيرة من أمرنا... لا ، لا... لا تحكي الآن ، دعني أذهب لأهلك لأبشِّرهم أولاً ، ثم تحكي لنا كلنا مجتمعين.
- عمي زهير ، دعني أرتاح قليلاً واستحم على وجه السرعة ونذهب جميعًا إلى أهلي بالإسكندرية ، وهناك أقص عليكم ما حدث بالتفصيل.
- نِعمَ الرأي يا حسن.
- خلال أقل من نصف ساعة سأكون جاهزًا... ليتحضر الجميع.

الجميع في سيارة زهير متوجهين إلى بيت أهل حسن... يصلون بعد نصف ساعة... يقول زهير لهم:

- اسمعوني ، حسن ينتظر في هذه المقهى ، ونذهب نحن نُهيِّئ الأمور خوفًا على أبي حسن وأمه من الصدمة.

أبو حسن في المضيف مع عدد من الضيوف جاءوا يواسونه... أم رضاب ورضاب وأختها يدخلنَّ البيت ، وزهير يذهب للمضيف... يستقبله أبو حسن استقبالاً حسنًا ويقبِّله ويعانقه ويبكي على كتفه...

- آه يا حسن يا ولدي ، كسرت قلبي يا حبيبي... الله يجازي اللي كان السبب ويظلمه وينكبه بأولاده مثل ما نكبنا ، الله لا يوفقه في دنياه وفِي آخرته.

- أبو حسن ، استهدى بالله وخلي عينك بعين الله.

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون يا زهير ، ما بأيدينا شيء نستطيع عمله.

أبو حسن يسمع صوت هلاهل طالعة من البيت ويميز هلهوولة أم حسن المتميزة لأنها عالية وطويلة وفيها نغمة وتهدج ، لأنها تطلقها من أعماقها وليس من طرف لسانها... فيختلط عليه الامر ، وينظر لزهير باستغراب:

- أكيد أم حسن أصابها مَسٌّ من الجنون.

- لا يا أبا حسن... إن حسن في المستشفى ويحاول الأطباء إنقاذه وإخراج الشظايا من جسمه، وإن شاء الله تنجح العملية.

- ماذا تقول يا زهير... أرجوك أمسكني... حسن حي يرزق ؟!

- نعم، نعم... والله حيٌّ يُرزق، وهو حاليًا في مستشفى الرشيد العسكري في وضع صحي حرج.

- الله أكبر، الله أكبر... وكيف أراه يا زهير؟... لنتوكل على الله وننطلق إلى بغداد.

لا يودعان أحدًا ولا يسلمان على أحد، أبو حسن نسي الدنيا وما فيها، وحتى أصول اللياقة بتوديع الضيوف.

دقائق ويصلون إلى القهوة على الطريق العام... فيركن زهير السيارة.

- تفضل انزل أبو حسن.

- لماذا؟!

- أريد أن أشرب الشاي، رأسي تؤلمني.

- زهير يا شاي، أنتَ بطران، أنا كانون النار في داخلي وأنت تريد شرب الشاي... معقولة منكَ هذا يا زهير؟!... هذا حسن حبيبك وأنت تتعامل مع الحدث بهذا البرود؟!

حسن يرى أباه وزهير متوجهين إلى القهوة فيندفع بلا شعور باتجاه أبيه وقد سقط الشاي من يده، وأخذ المنضدة التي أمامه معه، واندفع بجنون نحو أبيه وعانقه وهو يبكي ويقبِّله قبلات متتالية... وأبوه تارةً يقبِّله وتارةً يشمه... ويسقط على الأرض مغشيًا عليه.

ينهض عددٌ من رواد المقهى ومعهم زهير فيرفعون أبا حسن من الأرض على أحد تخوت المقهى القريبة ويغسلون وجهه بالماء البارد ويبللون شفتيه ويطبطبون على خديه، فيصحو من هول الصدمة وهو ممسكًا بحسن بقوة.

يتعاون زهير وحسن على نقله إلى السيارة بعد أن يرتاح قليلاً... وبصوت مبحوح يعاتب زهير:

- لماذا فعلت بي كل ذلك، ولم تقل لي من البداية أن حسن حيٌّ وبصحة جيدة ، وما حكاية مستشفى الرشيد والعملية ؟... زهير فهمني، لقد تاهت عليَّ الأمور.

- خفت عليك من الصدمة فرأيتُ أن أخبرك على شكل أقساط وليس بشكل مباشر لأمتص الصدمة... لأني تذكرت حكمة حكاها لي أبي أيام زمان :

أن شاعرًا فقيرًا لا يملك قوت يومه يعيش مع أمه في زريبة بأطراف المدينة ، كتب شعرًا يمدح فيه الأمير ، فاستحسنه وأكرمه بغلام... عاد به إلى أمه، فسألته، من هذا ؟!... فقال: غين... وما غين؟... قال: لام... وما لام؟... قال: ألف... وما ألف ؟... قال : ميم... فغشي عليها... ولو قال لها غلام مرة واحدة لماتت...

ولهذا يا أبا حسن لم أقل لكَ مرةً واحدة، لأني خفتُ عليك.

• • • •

يعودون جميعًا إلى البيت ، وتُقام الأفراح والولائم... ويقص حسن عليهم قصته وكيف نجى، وكيف عاد سالمًا:

عند التحاقي بوحدتي اللواء ٣٢ الفرقة ٣٦ الفيلق السابع ؛ سلمتُ كتابي لضابط ركن آمر اللواء، فقال: الله بعثكَ إنقاذًا لنا، تستلم مفرزة الاستطلاع وبنفس الوقت أنتم رأس النفيضة ، وتذهب بمجموعتك أمام الخط الأمامي الأول لدفاعات اللواء بحدود كيلومترين، فهناك تجدون تلاً تُرابيًا تراقبون منه القوات الإيرانية وتركزون على خط الشروع ، وتخبروننا عن أي تحركات للقوات الإيرانية وخاصة انتشار القوات وانفتاحها وأي تعزيزات إضافية لها... احتموا دائمًا بسفح التل ولا يصعد أحدكم لقمة التل لكي لا يراه الأعداء.

نقيب حسن في دهشة وحيرة، صحيح هو ضابط؛ ولكنه ضابط مهندس ولا يفهم كثيرًا بالسياقات العسكرية ، ولم يسبق له أن تدرَّب على الاستطلاع باعتباره عِلمٌ قائمٌ بذاته، ولم يتعرف بعد على المجموعة التي يقودها بهذه المهمة الخطيرة ، وكل ما يملكونه ناظور ورشاشات كلاشنكوف خفيفة عدد خمسة لأفراد مجموعته ولدية مسدس عسكري شخصي... استلم الجميع يطقاتهم ومعهم دليل أوصلهم للتل المعني وعاد ، ووعدهم أنه سيوصل لهم أرزاقهم كل يوم من خلف التل ومن خلال بساتين النخيل الكثيف على حافة هور الحويزة المشترك بين العراق

وإيران ، ويستحسن الاستفادة من الساقية الجافة التي تمر من الجانب الخلفي للتل وتصل قريبًا من ساتر دفاعات اللواء.

ضابط استخبارات اللواء أكَّد لحسن أن هناك نية لهجوم مرتقب للقوات الإيرانية على قاطع اللواء ، يتطلب الأمر الحيطة والحذر والمراقبة المستمرة.

حسن بعقلية مهندس يناقش مجموعته الخمسة أفراد : يا إخوان لا يفصل بيننا وبينهم سوى هذا الساتر ، فإن سقط الساتر ؛ سقط اللواء لأن الأرض ستصبح مكشوفة أمام تقدم الأعداء ، وبحسابات هندسية بسيطة أرى أن تكون خطوط الدفاع عدة شقوق أرضية متوازية ومتصلة أحدها يبعد عن الثاني مائة متر وعلى عمق اللواء يكون أفضل بكثير ، لأنه لو سقط الخط الأول سيدافع الخط الثاني ، وهكذا... وأن تكون لدينا خطوط دفاعية متقدمة من الألغام الأرضية وبراميل البارود... كذلك يجب تنسيق مدفعية اللواء مع مدفعية الفرقة مع مدفعية الفيلق لتكوين خط ناري قوي يعالج أي خرق مباغت على طول جبهة الفيلق.

يقول له أحد الأفراد : سيدي نقيب حسن أنتَ تفهم كثيرًا بالتكتيك العسكري ، من أين لكَ كل هذه المعلومات القيمة؟

رئيس عرفاء رمزي لا تنسى أني دخلت دورات تعبئة كثيرة ولكنها كلها نظرية دون تطبيق عملي ، ومع هذا غدًا إذا جاء مأمور الأرزاق سأرافقه لزيارة آمر اللواء ، والله كريم.

في اليوم التالي يرافق نقيب حسن عريف الأرزاق إلى مقر اللواء ويسأل عن آمر اللواء، فيخبرونه أنه غير موجود وعنده اجتماع مهم في مقر الفرقة مع هيئة الأركان... فيعود مع عريف الأرزاق إلى موضع التلة دون أن يحقق أي شيء.

يلاحظ حسن بالمنظار المكبر (الدوربين) تحركات مريبة للقطع الإيرانية على طول خط جبهة اللواء، وأن هناك تعزيزات مستمرة، كذلك يلاحظ وجود عدة زوارق مطاطية أُنزلت في الهور على جناح اللواء الأيسر.

يتصل على الفور بضابط استخبارات اللواء وينقل له الموقف. يرد عليه ضابط الاستخبارات: لا تقلق نحن نتابع هذه التحركات عن كثب، وأن الهجوم الإيراني الرئيسي المرتقب ليس قاطع لوائهم وإنما على قاطع اللواء ٣٤ لأن قطاعكم مستند جناحه الأيسر على حافة الهور وجناحه الأيمن على اللواء ٣٣ القوي لأنه يضم مقر الفرقة والقوات الساندة.

يرتاح حسن قليلاً وتطمئنه هذه المعلومات، ويشرح لمجموعته الوضع العام وأنهم نوعًا ما في أمان... يبقى اثنان للمراقبة والباقون يخلدون للنوم.

في الرابعة فجرًا تهتز التلة وتميد الأرض لكثافة الرمي المدفعي للعدو على اللواء وفِي تمام السادسة صباحًا يبدأ هجوم كاسح على طول جبهة اللواء وجناحه الايسر من حافة الهور.

القوات المهاجمة تتجاوز التل وتُسقط الساتر الأمامي وتكتسح دفاعات اللواء وتحتل مقر اللواء وتدمر كل ما في طريقها... هجوم كثيف بالعُدة والعدد... معظم الجنود الإيرانيين قد عصبوا رؤوسهم بأشرطة خضراء كُتب عليها "يا حسين".

رئيس عرفاء رمزي يجيد اللغة الفارسية ، يسمع عددًا من الجنود الإيرانيين يقولون وهم يتقدمون من جانب التلة: سنصل كربلاء بعد عبور هذا النهر... هكذا غُرَّر بهم.

يسقط اللواء بالكامل وتُدمر الخطوط الدفاعية والقدمات الإدارية ويتم احتلال مقر اللواء وتدميره... الخسائر كبيرة في الأفراد والمعدات.

تبادر الفرقة مع القوات الساندة من الفيلق بتنظيم الهجوم المقابل في اليوم التالي، ويتم تدمير القطعات الإيرانية المهاجمة وأسر إعداد كبيرة منهم لأن معظمهم قوات غير نظامية؛ عندما ينتهي عتادهم وأرزاقهم ويُقتل قادتهم، لا يعرفون غير الاستسلام.

نعود إلى نقيب حسن ومجموعته وما حلَّ بهم :

الإيرانيون تجاوزوا التلة وما فيها وما عليها ، وحسن ومجموعته وجدوا أنفسهم معزولين عن اللواء ، فتوجهوا إلى حافة الهور القريب جدًا عنهم ووجدوا زورقًا مطاطيًا صالحًا متروكًا فقرروا استخدامه لإنقاذهم... شغَّل حسن محرك الزورق فتجاوب معهم، انحدروا في عمق الهور فوصلوا لقرية

صغيرة؛ كان من حسن حظهم أنها قرية عراقية... رحَّب أهل القرية بهم وساعدوهم في النزول إلى المضيف وقدَّموا لهم الماء والقهوة والطعام.

حسن يتحدث مع صاحب المضيف عن أخبار القرية التي تعيش على صيد السمك والطيور المهاجرة وتربية الحيوانات الداجنة مثل البقر والجاموس والبط والإوز، ويطلب منه أن يدلهم على أقرب مكان يوصلهم لمدينة العمارة، فيقترح عليه أن يرتاحوا في القرية عدة أيام على وعد بمساعدتهم وتيسير الأمور... رئيس عرفاء رمزي يرجو من نقيب حسن الموافقة على الاقتراح والبقاء عدة أيام قبل العودة للواء... يجيبه حسن: اسمع يا رمزي، إننا في ظروف حرب ولا نعرف شيئًا عن لوائنا، وحسب تقديري تم سحق اللواء وتدمير القوة المهاجمة واختلط الحابل بالنابل وسوف لن تصفى الأمور إلا بعد عدة أيام، وأحسن شيء حاليًا نذهب لأهالينا ولا نعود للواء،هذا رأيي وعلينا أن نناقش الأمر ونتفق إذا كان ذلك ممكنًا.

صاحب المضيف يؤكد لهم أن الدار أمان ونادرًا ما يصل أحد لهذه القرية النائية، يقول لهم: أنا شيخ ماهود أرحِّب بكم، وأنتم ضيوفي وأتشرف بضيافتكم، وسأرسل شخصًا من العشيرة مع أحدكم ليطلع على أخبار المعركة ومصير لوائكم.

بعد استراحة ثلاثة أيام ، يذهب رئيس عرفاء رمزي برفقة شياع من العشيرة ، ومن على بُعدٍ يعرفون أن اللواء أُبيد تمامًا وسُجِّل بالخسائر ولم ينج منه إلا ما ندر ، ومازال البحث جاريًا عن الأفراد والمعدات...

جرت العادة في الجيش حينما تتعرض وحدة عسكرية لهجوم كاسح أو لقصف جوي مركز ؛ يسجلونها بالخسائر كاملةً ، وعندما يجدون شيئًا من الأفراد والمعدات لاحقًا ؛ يرسلون برقية (تلغراف) : إلحاقًا برسالتنا المرقمة.... والمؤرخة في.... تم العثور لاحقًا على ما يلي يرجى تنزيله من الخسائر... لأن القيادة تريد موقفًا فوريًا ، فيضطر قائد الفرقة وكادر الجرد الإداري لإتباع هذه الوسيلة السريعة التي تخلّصهم من الإحراج وتنفيذ الأوامر بالسرعة المطلوبة.

يتقربان بحذر من الخلفي ويسألان ، ويعرفان أن اللواء سُجل بالكامل في الخسائر... يعودان على الفور ويخبران نقيب حسن ومجموعته بالأمر... يناقشون الموضوع طول الليل ، يتفقون مرةً ويختلفون مرة... وأخيرًا وضعوا القرار بيد حسن... يقول لهم : يا إخوان هذا قرار مصيري ، نحن نعود لأهالينا وكل واحد يقرِّر ما عزم عليه ، ولكن نتعاهد وعد شرف ألا يذكر أحدكم شيئًا عن الآخرين ، بمعنى كل واحد مسؤول عن نفسه... فيردون : نقيب حسن أنتَ أخونا الكبير وقائدنا ونحن أحببناك من كل قلوبنا ، وذكائك وفطنتك أنقذتنا من موت محتم ، قرارنا

من قرارك ونحن أصبحنا إخوة ومصيرنا واحد ، إما نختار الحياة أو نختار الموت.

حسن يطرق قليلاً ولكن يفكّر بعمق: إخواني انها حرب عبثية وفيها الطائح رائح ولا قوة إلا بالله ، أنا خياري أنني لن أعود للخدمة مهما كان الثمن.
يتفق الجميع على هذا الأمر ويتعاهدون، ويقبّل أحدهم الآخر... يودّعون شيخ ماهود ويوصلهم بملابس مدنية شياع بزورقهِ الخاص إلى قضاء القرنة على الطريق العام الرابط بين العمارة وبغداد.

يصلون العمارة ويذهبون إلى بيت رمزي في محلة الماجدية ضيوفًا أعزاء... يأخذهم زميلهم رمزي إلى مركز المدينة ليشتروا لهم ملابس داخلية وملابس خارجية جيدة... ثم يذهبون إلى حمام شعبي في السوق المسقف... ويعودون فيجدون أم رمزي قد حضرت لهم الغداء.
يصرِّ رمزي على مبيتهم هذه الليلة.

نقيب حسن لدية أوراق إجازات نزول وختم مفرزة الاستطلاع... يعمل للجميع إجازات أصولية ، ويعمل لنفسه إجازة، ويقلّد توقيع قائد اللواء ويختم جميع الاجازات ، ويسلّم كل واحد إجازته... بعدها يتلف ما تبقى من أوراق الإجازات ويتلف الختم، ويخبرهم: من هذه الساعة أصبح كل واحد منكم مسؤول عن نفسه، وغدًا نفترق لكي لا نجلب النظر.

في صباح اليوم التالي يتم الوداع ، يبقى حسن مع رمزي ، ويذهب الآخرون إلى كراج بغداد ، ومن هناك يصلون سالمين إلى بغداد وكل منهم يذهب إلى أهله.

في صباح اليوم الذي يليه يوصل رمزي حسن إلى الكراج ويودِّعه بالقبلات والدموع.

وهكذا وصل حسن إلى بغداد وجاء إلى بيتهِ في السيدية.

- هذا كل ما حصل ودار ، وهذه قصتي باختصار شديد... أنا حسن يا أبي، ولا علم لي بالشخص الذي استلمتموه ودفنتوه، أكيد ابن ناس، الله يرحمه.

- ماذا نفعل في هذه الحالة يا زهير؟

- نترك الأمور حاليًا يا أبا حسن على حالها ، ولنرتاح قليلاً ونناقش حسن بالموضوع ثم نقرِّر ماذا نفعل... وضروري غدًا صباحًا أذهب إلى المقبرة وأرفع العلامة التي كتبنا عليها عبارة "الشهيد حسن إبراهيم التميمي".

• • • •

تعود أم رضاب وابنتها سهاد مع زهير إلى بيتهم في السيدية... ويبقى حسن ورضاب عند أهله ليرتاحا عدة أيام، وليطمئن أهل حسن وتهدأ النفوس وتطيب.

(٦)

بعد ثلاثة أيام يعود حسن ورضاب إلى بيتهما في السيدية برفقة أبي حسن ، وقد جهزتهم أم حسن بالمواد الغذائية الضرورية للبيت... وبعد استراحة قليلة يعود أبو حسن برفقة خال حسن إلى الإسكندرية.

عند المساء يزور حسن ورضاب صديقهما المخلص زهير ويدعوانه غدًا الجمعة على الغداء في بيتهما لمناقشة أمر مهم.

يلتقون يوم الجمعة في بيت حسن.

- ما الأمر المهم يا حسن؟
- عمو زهير ، أنا ورضاب قررنا السفر خارج العراق وبأي ثمن، ونرجوك أن تساعدنا.
- وأم رضاب وسهاد؟!
- سهاد ستتزوج الأسبوع القادم من خطيبها ، وأم رضاب لا تحب أن تفارق سهاد ولا تحب ترك العراق، تقول: أنا عشت هنا وأموت هنا وليس لي غير وطني العراق.
- ولكن هذا قرار خطير يحتاج إلى دراسة وتخطيط وكتمان ، وأنت يا حسن عسكري ، ومن بالغ الصعوبة خروجك من العراق، وإذا كُشف أمرك لا سمح الله؛ فعقوبتك الإعدام.

- أعرف يا عمو زهير، ولهذا نحتاج مساعدتك بالموضوع.
- أعطوني الوقت الكافي يا أولادي لأنسق الأمور وأرى، مثل هذه الأمور تحتاج التأني لأنه لا مجال للخطأ، لأن الخطأ يكلف الشيء الكثير... اصبروا إن الله يحب الصابرين... وأنت يا حسن قلّل خروجك من البيت وتحرك بحدود السيدية ولا تلتقي مع أصدقائك وخاصة الضباط، سواء أصدقاء الكلية أو أصدقاء الخدمة العسكرية.
- اطمئن عمو زهير، إني أقدِّر خطورة الموقف.
- شكرًا على الغداء، وعاشت يدك ويسلم ذوقك يا رضاب.
حسن ورضاب في صوت واحد:
- هذا بيتك ونحن أبناؤك.
- بارك الله فيكما وأشكركما... مع السلامة، ولا تحرمانني من زيارتكما اليومية لي، وخاصة أنتِ يا رضاب.

• • • •

الأمور العامة متأزمة، ومازالت الحرب العراقية الإيرانية مستعرة، سجال بين كرٍّ وفر، والخسائر هائلة بين الطرفين، وقد أتت على الأخضر واليابس... الوضع الاقتصادي يسوء جدًا، وحتى البطاقة التموينية التي يعتمد عليها الناس أخذت تفقد كثيرًا من موادها الأساسية، ورواتب الموظفين قليلة لا

تكفي مقارنةً بغلاء المعيشة، ومعظم الناس نفذ ما ادخروه لليوم الأسود (القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود) ، ونشطت السوق السوداء... كذلك تعاظمت الجريمة بسبب ضعف الأمن الداخلي... ولكن مازالت الدولة تملك من أسباب القوة بسبب قوة الأمن والجيش ما يجعلها نوعًا ما متماسكة رغم خسائر الحرب الجسيمة.

كان الموقف العام للبلدين المتحاربين سيئًا جدًا ، فمع اقتراب نهاية الحرب بدأ الخمول يظهر على أداء الجيشين العراقي والإيراني نتيجة للاستنزاف الطويل للذخيرة الحربية والقوة البشرية للجيشين، فبدأت مرحلة سوداء في تاريخ الحرب وهي قصف المدن بصورة عشوائية عن طريق صواريخ سكود أو أرض-أرض طويلة المدى حيث راح ضحيتها الكثير من المدنيين.

وبدأت القوات الجوية العراقية بضربات إستراتيجية للمدن الإيرانية ، واستهدفت الضربات طهران العاصمة ، وقامت ايران باستخدام صواريخ سكود البعيدة ، ورد العراق بالمثل بقصف طهران.

وصل الأمر إلى حد استهداف العراق الطائرات المدنية ومحطات القطار وتدمير ثلاث وأربعين مدرسة عام ١٩٨٦ مما أدى لمقتل مئات التلاميذ ، وبالمثل إيران كحادثة "مدرسة

بلاط الشهداء" التي راح ضحيتها الكثير من التلاميذ العراقيين، وقامت الدولتان باستعمال أسلحة كيماوية في الحرب؛ والعراق بشكل أكثر ؛ إلى أن أدانت الأمم المتحدة استعمال الأسلحة الكيماوية، ولم تتمتع الحكومة الإيرانية بدعم دولي على عكس العراق الذي كان يتمتع بإسناد ذي قاعدة عريضة... كل هذه العوامل مجتمعة أدت لموافقة إيران على هدنة اقترحتها الأمم المتحدة والتي وصفها الخميني "كأس السم" حسب تعبيره في ٨ آب ١٩٨٨ ، حيث كانت إيران ترفض أي قرار من مجلس الأمن ما لم يعترف بأن العراق هو البادئ بالاعتداء وإقرار التعويضات اللازمة لإيران والتي قد تصل إلى ٢٠٠ مليار دولار.

وافق البلدان على وقف إطلاق النار في٢٠ آب، لتبدأ بعدها المفاوضات المباشرة بين العراق وإيران في جنيف ٢٥ آب - ٧ أيلول ١٩٨٨ وكان على المتفاوضين بحث قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ والذي يتضمن ٥ نقاط هي:

١. وقف إطلاق النار
٢. الانسحاب إلى الحدود الدولية
٣. تبادل الأسرى
٤. عقد مفاوضات السلام
٥. إعمار البلدين بمساعدة دولية

أصدر العراق "بيان البيانات" في ٨-٨-١٩٨٨ :

(أيها الشعب العراقي العظيم

يا أبناء أمتنا العربية المجيدة

أيها الرجال النشامى في قواتنا المسلحة...

إنه يومكم ، إنه يوم الأيام ، وهو في ذات الوقت بيان كل البيانات ، في هذا اليوم ، صدر إعلان وقف إطلاق النار ، وقد حدد يوم الوقف الرسمي لإطلاق النار وساعته في العشرين من آب/أغسطس ١٩٨٨ ، وقد جاءت موافقة إيران على هذا بعد قتال استمر ثماني سنوات قاوم فيها شعب العراق وقواته المسلحة الباسلة قوى البغي والعدوان بكل ما تجمع لديها من إمكانات فنية ومن خبرة الدجل والشعوذة في إطار تعبئة الشر واستنفار الحقد في أعمق مكامنه حتى ظن الأشرار وظن معهم كثيرون أنَّ احتلال العراق والإطلالة منه ومن ركام الاحتلال على كل الوطن العربي قد يكون مجرد زمن ومجرد قبول درجة معينة من الخسائر وتجميع ما يقتضي من إمكانات وترتيب ما يستوجب من تحالفات ، إلا أن الله وهمم الغيارى أبناء العراق رجالاً ونساءً مدعومين بجهد ودعاء كل الخيّرين قد خيبت آمالهم ووصل حالهم إلى ما وصل إليه بعد طول منازلة وقد وضعتهم معارك رمضان المبارك وعمليات توكلنا على الله وعمليات محمّد رسول الله في موضع الإعياء والعجز العام بصورة رسمية ومعلنة عن إمكانية تنفيذ شعارات التوسع

والعدوان، وجاء قرار موافقتهم على وقف إطلاق النار كتعبير عن هذه الحقيقة بعينها...

إنه الانتصار العظيم الذي يسجله العراق اليوم باسم كل العرب وباسم كل الإنسانية، إنه انتصار للحاضر والماضي والمستقبل لذلك فإنّنا ندعوكم لتحتفلوا به كانتصار عظيم وبغض النظر عما ستكون عليه نتائج ما ينتظرنا من تطبيق للفقرات الأخرى من قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ والتي سوف لا تنفصل نتائجها عن هذه الحقائق وعن يقظة شعبنا واقتداره المتنامي ودعم العرب لهم بتفاعل أخوي عظيم من المحيط إلى الخليج، احتفلوا أيها العراقيون الأماجد ، احتفلوا الآن بانتصاركم ، احتفلوا بيوم الأيام... ويعبر كل عن الفرحة ويحتفل بطريقته... احتفلوا أيها العرب إنه يومكم ، يوم الدعاء النقي ويوم الأصوات الشريفة ويوم الأيدي البيضاء التي امتدت بالعون الأخوي إلى حيث البطولة والجهاد الملحمي ويوم كل طلقة وقذيفة وسلاح وذراع وجدت طريقها في جبهة المنازلة إلى جانب قدرات العراق ورجال العراق... إنه يوم كل الشرفاء في العالم من محبي السلام والحرية والتطلع الشريف والحضاري إلى الأمام... وإنه يوم كل إيراني رفض الحرب واكتشف؛ وإنْ بعد حين ؛ أنَّ طريق السلام واحترام الجيران وإرادة الأمم والشعوب هو الطريق الذي لا طريق غيره إلا طريق الهزائم والدمار والمهانة... وأنتم أيها الرجال في قواتنا المسلحة احتفلوا

مع شعبكم وأمتكم أيضا وبطريقتكم الخاصة ، دون أن تفقد عيونكم اتجاهها إلى الشرق لحماية أرضكم... احتفلوا بنصركم الرسمي المبين، احتفلوا بقطوف أتعابكم وثمار عرقكم ودمائكم وما قاسيتم... احتفلوا أيها الشيوخ والشباب... أيتها النساء وأيها الرجال... أيها الأطفال يا زينة الحياة... وأنتم أيها الشهداء يا أسياد النصر وساريته وعنوانه ، أيها الأكرمون ، إنّكم يقينًا ستحتفلون على طريقتكم الخاصة ، لأن أرواحكم الطاهرة حفظت العراق ومنعت المعتدين من أنْ يدوسوا أرض العرب بعد أن أرضكم ومقدساتكم، إنّ أرواحكم بيننا، وإننا نعلن عهد أصحاب العهد بأننا سنحفظ الأمانة وسنصون العهد...
والله أكبر).

وبالفعل احتفل في ذلك اليوم البهيج الشعب العراقي رغم الجراح بطريقتهم الخاصة برش الماء بعضهم على البعض وبالخروج إلى الشوارع العامة للتعبير عن فرحتهم بانتهاء هذه الحرب المدمرة... وتوقعوا أن تبادر القيادة إلى تسريح الاحتياط وترقيق الجيش والسماح للمتطوعين الذين يرغبون بترك الخدمة... وتمر الأيام ولم تتخذ القيادة أي إجراء مما توقعه الناس.

(٧)

يزور زهير بيت حسن ويناقشون الأمور ، ويطالبهما بالصبر الجميل لعل هناك فرج قريب.

- يا عمو زهير ، أنا حاليًا في سجلات الجيش شهيد ، ولحد الآن رضاب لم تعمل لي معاملة ، ووضعي حاليًا غير طبيعي ؛ بمعنى هارب من الجيش ، وعقوبة الهارب من الجيش أثناء الحرب الإعدام... أرجوك أن تقدِّر موقفي وتسرع في مسألة خروجي من العراق ، لأن مسألة عودتي للجيش أصبحت مستحيلة ، وإلا سأحال إلى محكمة عسكرية باعتباري هارب. أرجوك أن تبذل قصارى جهدك.

زهير بعد جهد جهيد يجد الشخص المناسب الأمين الذي يصدر جوازًا بصورة حسن ولكن باسم (رائد محمد تقي البيرماني)... طبعًا مقابل ثمن... ويتأكد أن الجواز صادر أصوليًا من مديرية جوازات الكرخ ولا شائبة عليه.

يتفق مع جارهم أبو عبدالله الذي يملك سيارة بهبهان للنقل بين عمان وبغداد على نقل حسن بأمان ويكون مسؤلاً عن إيصاله وتأمين سكنه.

حسن يودِّع رضاب بالدموع ويعطي وكالة عامة وخاصة إلى زهير ، وصباح اليوم التالي يتوكل على الله... يصل في المساء

إلى عمان بعد معاناة وخوف لأن الطريق غير آمن بسبب كثرة اللصوص وقطاع الطرق رغم كثافة تحرك القوات العسكرية على الطريق السريع... ويتعرضان لعدة مواقف صعبة، ولكن أبو عبدالله السائق خبير ومتمرس بالطريق... يصلان إلى "طريبيل" نقطة المرور الحدودية إلى الأردن، يسلم أبو عبدالله السائق جوازه وجواز (رائد) إلى ضابط الجوازات للتدقيق والختم لدخول الأردن... يُختم جواز أبي عبدالله، ولكن جواز (رائد) يُدقق عدة مرات ثم يتصل ضابط الجوازات بشعبة التدقيق ويسلّم الجواز لهم... (رائد) يكاد يموت من الخوف، يصفر وجهه وتصطك أسنانه ولا يعرف ماذا يفعل، الود وده الهرب من هذا المأزق الرهيب الذي وضع نفسه فيه... يا إلهي ما أنا فاعل، الموت ينتظرني، أكيد سيسلمونني إلى الحكومة العراقية، إذن الإعدام ينتظرني لأني هارب من الجيش أثناء الحرب إلى خارج القُطر، جريمة عقوبتها الإعدام.

أبو عبدالله هو الآخر في حيرة من أمره، لقد تجاوزوا نقطة الكمارك العراقية في طريبيل بيسر وسهولة، فما بال الأردنيين ولماذا كل هذا التدقيق والتشدد؟!

ينادون على أبي عبدالله ويسلمونه جوازه بعد أن ختمته الدائرة أصوليًا وأصبح مسموحٌ له بالمرور، ولكن مازال جواز (رائد) بالتدقيق... تمر الدقائق ثقيلة، وتكاد القاعة تفرغ من المسافرين بعد استلم معظمهم جوازاتهم وغادروا...

أبو عبدالله بصوتٍ منخفض يقول لحسن:

- الظاهر هناك مشكلة في جوازك يا رائد، الله يستر.

في هذه الثواني الحرجة ينادون على حسن، طبعًا باسم (رائد)، يتقدم وهو يجرُّ رجليه جرًا، فينبهه أبو عبدالله أن عليه أن يتماسك ويكون قويًا...

- تفضل من هذا الممر لمقابلة السيد المدير.

حسن في وضع لا يُحسد عليه، ولكنه يتماسك... يعني أنا ما مت في الجبهة؛ اموت هنا... يالله كلها موت، تعددت الأسباب والموت واحد...

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- هذا جوازك؟
- نعم أستاذ.
- صادر من بغداد الكرخ؟
- نعم أستاذ.
- ما هو عملك؟
- أعمال حرة.
- يعني ماذا تعمل؟
- أنا صائغ ذهب عندي محل صياغة في السيدية.
- ولماذا تريد زيارة الأردن؟

- لأشتري بعض الحلي الذهبية التي يحتاجها محلي من تجار الجملة في عمان.

- وهل معك نقود تكفي؟

- نعم أستاذ، هذه نقودي وعندي نقود في جنطتي في السيارة، وممكن أن يتم تحويل أي مبلغ أحتاجه من بغداد إلى البنك.

- طيب يا رائد، نأسف للتأخير.

يختمون الجواز ويسلمونه إلى حسن وهو غير مصدِّق أنهم اعطوه جوازه...

يخرج ويعود لقاعدة الانتظار، يبتسم بوجه أبي عبدالله السائق، فيعرف أنهم ختموا الجواز، فيرتاح.

يتوجهان للسيارة وينطلقان على الفور... يصلان عمان، ويتوجهان إلى حي (الهاشمي الشمالي) إلى الدلال أبو محمد صديق أبي عبدالله في ساحة النقاوة... يستأجران شقة مؤثثة نظيفة مرتبة قُرب هذه الساحة.

يفتح حسن حقائبه ويرتب حاجاته في الدولاب ويفرش الشراشف (الملايات) التي زودته بها رضاب وأوصته باستخدامها... يستحم، فيشعر بفرق طعم الماء ونوعه، ويستحسن ماء بغداد وسهولة رغوة الصابون به.

يذهب لأقرب سوبر ماركت ويشتري قناني الماء الصالح للشُرب وبعض الحاجات الضرورية.

يحاول التعرف على المنطقة ويلتقي بعدد من العراقيين يرافقهم لزيارة حائط المبكى...وهو سُوَر ارتفاعه قليل بحدود سبعين سم يحيط ساحة من المؤمل بناء مول فيها ، يجلس عدد من العراقيين مساء كل يوم على هذا السور يتسامرون ويقص بعضهم على بعض معاناتهم من الانتظار وابتزاز المهربين لعدد منهم وأعمال النصب والغش والضحك على الذقون... وضياع بعضهم لنقوده بسبب النصب والتزوير.

هناك من يخاف من المغامرة والخروج مع مهرب مغمور ويتركه في منتصف الطريق لُقمة سائغة للنصابين، فقدَّم أوراقه إلى مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين وأعطوه بطاقة حماية وينتظر دوره في المقابلة والقبول... ولكن الأعداد كبيرة والإمكانات محدودة وتحتاج إلى صبر وانتظار طويل واحتمال لعدة سنين.

العراقي في عمان بين نارين كلاهما صعب وغير مضمون: التهريب بواسطة مهرب مغامرة نتائجها غير مضمونة... أو انتظار قرار موافقة مفوضية الأمم المتحدة ، وهو صعب ويحتاج إلى وقت طويل، وكذلك الموافقة غير مضمونة.

حسن باعتباره مهندس أجرى دراسة عملية من خلال لقائه بعدد كبير من العراقيين المقيمين في عمان... هناك من ينتظر دوره في المفوضية منذ أكثر من سنتين دون نتيجة ويحتاج مصروف

شهري مع عائلته لا يقل عن ألف دولار ليعيش حياة كفاف بسيطة وسكن بسيط لكون الدينار الأردني أقوى حتى من الدولار (الدولار يساوي ٧٠٪ من الدينار الأردني تقريبًا).

حسن يقرر مغادرة عمان وعدم الانتظار كثيرًا لاستثمار الوقت وأن المبلغ الذي سيدفعانه للمهرب في كل الأحوال سيصرفانه هو ورضاب إذا عاشا في الأردن فترة طويلة.

إذن ليأخذ الأمور من قصير ويهاجر إلى السويد حسب نصيحة زهير لأن أولاده يعيشون فيها مرتاحين ولأنهم يستطيعون تأمين وصولهما بأمان ، أفضل من المغامرة عن طريق المهربين في عمان غير المضمونين.

حسن ينتظر وصول رضاب كما وعده زهير.

• • • •

تمر الأيام ثقيلة على رضاب في بغداد وعلى حسن في عمان... وزهير يبذل جهودًا مضاعفة لتصفية أموره وإصدار جوازات له ولعائلته... الكل يترقب أن يصدر بيان من الحكومة بتسريح مواليد عديدة من الجيش وخاصة الذين تجاوزت خدمتهم عشرة سنوات كجنود وضباط مكلفين وليس متطوعين ، ولكن دون نتيجة.

ويحدث ما لم يكن في الحسبان...

تقرِّر القيادة العراقية اجتياح الكويت باعتبارها جزء من الأراضي العراقية... وتوضع لذلك خطتان : الأولى في حالة وجود مقاومة عنيفة يدخل الجيش بعمق ثلاثين كيلو متر أي كافة الحقول النفطية المشتركة على الحدود ويحتل جزيرتي وربة وبوبيان في الخليج العربي ، بعدها تبدأ المفاوضات ليحصل العراق على حقوقه... وفِي حالة عدم وجود مقاومة قوية يستمر الجيش بالاستيلاء على كامل الأراضي الكويتية ، وهذا ما حصل ، وأعلن أن الكويت أصبحت قضاءً تابعًا إداريًا لمدينة البصرة ، وأن شيخ الكويت أصبح قائم مقام مرتبطًا بمحافظ مدينة البصرة.

تستعين الكويت بالسعودية ودول الخليج العربي والجامعة العربية من جهة... وكذلك تستعين ومعها السعودية ودول الخليج وبعض الدول العربية بأصدقائهم الأمريكان والإنكليز والذين لهم مصالح اقتصادية وإستراتيجية... فيتدخل الأمريكان والإنكليز للحفاظ على مصالحهم ويحشدون أكثر من ثلاثين دولة من دول العالم وتشترك معهم بعض الدول العربية... والأدهى من ذلك تصدر قرارات من الجامعة العربية ومن اجتماع الملوك والرؤساء العرب في القاهرة بإدانة العراق ليسهلوا الأمر على أمريكا بغزو العراق بحجج واهية منها امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل... ويتم غزو العراق دون

موافقة مجلس الأمن بقرار أمريكي وبإصرار من الرئيس الأمريكي بوش الابن ومن لف لفه وبمباركة إسرائيل... وهكذا بدأ قصف العراق بقوة وبمنهجية لتدمير البنية التحية للبلاد وإضعاف الجيش العراقي قبل الإجهاز عليه وتدميره.

بعد ثلاثين يومًا من القصف المركز والمبرمج لعموم العراق وخاصة المراكز الحيوية والبنية التحتية؛ قامت القوات الغازية باحتلال العراق من الجنوب للشمال ومن الغرب للشرق ودمروا البلاد وسبوا العباد يريدون إعادة بلاد الرافدين إلى العصر الحجري كما أعلنوا وصرحوا علانية... إنها مأساة المغول تُعاد من جديد ولكن بأسلحة متطورة وبإمكانات تكنولوجية متقدمة وفتَّاكة.

العراق كل العراق ، لا ماء نظيف معقم ولا كهرباء ولا اتصالات... باختصار شديد لقد دُمرت البنية التحية للبلاد بالكامل.

• • • •

نعود الآن إلى رضاب وزهير وما حلَّ بهما بعد الاجتياح وتدمير البلاد...

زهير وبالاتفاق مع حسن قبل بدء الغزو بثلاثة أيام يقرِّر الانتقال إلى مدينة الفلوجة لكونها أكثر أمانًا من بغداد ولقربها

ولوجود أصدقاء وأقرباء أمَّنوا لهم السكن والسلامة والمحافظة على عوائلهم... وهكذا يكلّف زهير حُرَّاسًا مؤتمنين على بيتهم وبيت حسن، ويذهب الجميع إلى الفلوجة ويقيمون في بيت كبير وحديث استأجره لهم أقرباء زهير، ويستقرون هناك أيام الشدة واجتياح القوات الأمريكية البلاد.

يمرُّ شهر كامل قبل أن تهدأ الأوضاع نوعًا ما وخاصة بعد معركة المطار المشهورة التي استخدم فيها الأمريكان أسلحة متطورة ومحرَّمة دوليًا.

يقرر زهير العودة إلى بغداد رغم أن الطريق بين الفلوجة وبغداد محفوف بالمخاطر، فالمعلومات التي تصل تؤكد أن الأمريكان شجعوا العصابات وكل زناة الليل والمجرمين على السرقة ونهب وسلب المؤسسات الحكومية والمحلات التجارية وبيوت الناس.

زهير أودع قسمًا من حلاله في خزانة محله المُحكمة، والقسم الآخر حوَّله إلى سبائك ودفنها في حديقة الدار في الليل ووضع إشارات للدلالة يعرفها هو وزوجته فقط.

• • • •

عدد لا بأس به من الناس يعودون إلى بغداد على الطريق القديم "طريق أبو غريب" المزدحم، ويلاحظون الحرائق وحجم

الدمار الهائل وأعمال نهب مؤسسات الدولة والمخازن والمصانع... الطريق الذي يستغرق أقل من ساعة ؛ استغرق ست ساعات بسبب تدمير الجسور والطريق الرئيسي مما يضطرهم أن يسلكوا طرقًا فرعية ومزدحمة أيضًا... بعد عذاب ومرار وساعات انتظار مملة يصلون مشارف بغداد ويشاهدون حجم الدمار الهائل ومفارز القوات الأمريكية المدججة بالأسلحة الثقيلة تجوب الشوارع وتضع الحواجز ، والدبابات تدمر الشوارع والساحات والميادين وكل ما يعترضها ، وما لا يعترضها.

يصلون إلى بيت زهير في السيدية فيجدون الحارس قد صان الأمانة ولم يترك البيت، فيشكره ويكرمه.

يتعاون الجميع في إعادة تنظيم البيت وتنظيفه... يذهب زهير إلى الشارع التجاري ويشتري للجميع دجاجًا مشويًا وكمية من الخبز والخضروات والفاكهة ويعود على وجه السرعة... يرتاحون قليلاً ويشربون الشاي، وتذهب رضاب وأمها وأختها وزهير لبيت حسن... صحيح يجدون الحارس ولكن البيت قد تعرض للسرقة ، كثير من مستلزمات البيت مسروقة وخاصة المعدات الكهربائية... الحارس يبرِّر ذلك بأنه ذهب في إحدى الليالي ليشتري له عشاءً من منطقة الدورة وعندما عاد بعد ساعتين وجد أن باب الدار مكسور وتم سرقة التلفزيون

والمكنسة الكهربائية والطباخ والاوفن والمدفئات الزيتية وبعض السجاد والتحف الفنية.

تبكي رضاب وأمها وأختها، فيطمئنهن زهير أن كل شيء ممكن تعويضه...

- أنا أشك بالحارس وسأعرف كيف أعيد مواد البيت المسروقة.

زهير يشتري لبيت رضاب أساسيات البيت وخاصة الطباخ والتلفزيون والمدفئات، ويعطيهم من بيته سجادتين واحدة للهول والأخرى لغرفة الضيوف... فتستقر نفسية رضاب وتهدأ وتحاول إعطاء زهير مبلغًا من المال، فيقول لها: استهدي بالله نحن عائلة واحدة يا رضاب، لا تعامليني مثل الغريب.

في هذه الأثناء يأتي لهم أبو حسن مستفسرًا عن أحوالهم وقد جلب لهم في سيارته البيكب اب (نصف حمل) من خيرات الله الشيء الكثير... يطمئن أبو حسن على رضاب وعلى صحتها وعلى حملها وعلى أمها وأختها ويشكر زهير كثيرًا...

- كان الود ودي أن تأتوا معنا إلى الإسكندرية، ولكن مشكلة القصف المكثف على منشآت التصنيع العسكري في المنطقة ألحقت أضرارًا بليغة بالإسكندرية، وأنا مجبر على البقاء في بيتي ومزرعتي أرعى الحلال واحرس البيت والمزرعة... والحمد لله مرَّت بسلام...

فيرد عليه زهير:

- يا سلام يا بطيخ ، أبو حسن ادخل مركز بغداد وشوف حجم الخراب.
- المهم أنتم سالمون وكل شيء يتعوض... بالمال ولا بالأرواح يا زهير... المهم الآن هل أنتم مستعدون للذهاب معي إلى الإسكندرية؟
- لا أبو حسن ، دعنا نرتب الأمور ، كم يوم وسنأتي لكم في نهاية هذا الأسبوع.
- ولكن يا زهير ضروري ترافقني رضاب وأمها وأختها ، وأنت على كيفك، البيت بيتك ونحن أهلك.
- صدقت يا أبو حسن.

زهير كل تفكيره مركز على حلاله في الحديقة وفِي المحل ، ولكنه متعب والشارع التجاري بدون ناس، لينتظر لصباح الغد (العقل بالصبر ، والصبر مفتاح الفرج)... ولكنه مع ذلك يفتش الحديقة فيرى أن الأمور على ما يرام... ثم يذهب للشارع التجاري فيرى محله مغلقًا رغم الدمار في عدد من البنايات وتكسر الزجاج الظاهر من عصف الصواريخ والقنابل.

صباح اليوم التالي يتأكد من أن الذهب المدفون في حديقة البيت والمؤشر بعناية موجود كما هو ، ويذهب مع جيرانهم وأولادهم وأخيه للمحل ، ورغم الدمار الحاصل بفاترينات المحل وتحطم الزجاج بالكامل؛ لكن الخزنة (القاصة) سليمة كما هي... يشكر

الله ويحمده، ويشتري خروفًا من قرب العلوة (سوق عام لبيع اللحوم والأسماك والخضروات بأسعار الجملة)... يوزِّع جزءًا من لحم الخروف على الجيران، ولا ينسى الحارس الأمين الذي حافظ على بيته.

يحاول ترتيب المحل وإصلاحه، ومواصلة العمل وتعويض بعض الخسائر قدر الإمكان.

يوم الخميس يقرِّر الذهاب صباح الجمعة إلى أهل حسن ليطمئن عليهم... يشتري لهم بعض الهدايا البسيطة ويأخذ معه خاتمًا ذهبيًا لرضاب ليطيب خاطرها ويسعدها.

يحاول الاتصال بحسن، ولكن الاتصالات مدمرة... يقول له الأصدقاء إن هناك شخص لدية تليفون "ثريا" يمكنه الاتصال بعمان مقابل ثمن... يذهب على الفور، وبالفعل ينجح في الاتصال بحسن ويطمئنه...

- متى تأتون إلى عمان عمو زهير؟

- اطمئن يا حسن، رضاب وأمها وأختها في الإسكندرية عند أهلك، وأنا غدًا الجمعة صباحًا اذهب لزيارتهم... أهلك بصحة جيدة وأبوك جاء لزيارتنا وجهزنا بما نحتاج من مواد غذائية... سأتصل بك بعد غدٍ وأجعل رضاب تكلمك إن عادت معي إلى بيتها... المهم، اطمئن.

(٨)

يتعرض زهير للخطف من بيته من قِبل إحدى العصابات... يضربونه أمام عائلته ويعصبون عينيه ويقيدون يديه ويضعونه في صندوق سيارته، ويسرقون ما في البيت من نقود وذهب، وينزعون ذهب زوجته وبناته حتى حلقة الزواج... ويحشرون عائلته في المخزن ويغلقون عليهم الباب... يقود أحدهم سيارة زهير ويتوزع الآخرون بين سيارته وسيارتهم، ويهربون.

عائلة زهير في مخزن الطعام يصرخون ويستغيثون... وبالصدفة يأتي شقيقه ليطلب منه مبلغًا من المال، فيسمع الاستغاثة... يفتح الباب ويُخرج العائلة والجميع يصرخون مرعوبين، وشقيق زهير يحاول تهدئتهم ويطلب منهم أن يشرحوا له ما حدث.

يستعين بالمعارف والأقرباء والأصدقاء، الذين يتجمعون على وجه السرعة في بيت زهير... وبعد أكثر من ساعة من الزمن يحضر أبو حسن ومعه شيخ بني تميم... وتبدأ اتصالات مكثفة، لكن دون فائدة، لأنهم لا يعرفون الجهة التي خطفته ولا رقم سيارة العصابة ولا الوجهة التي أخذوه إليها.

الكل في حيص بيص، مناقشات وآراء غير مثمرة... إلى أن يرن هاتف شقيق زهير... المتصل رقم غريب...

- نعم، آلو.

- أنت نوري شقيق زهير؟

- نعم أنا نوري، من أنت؟

- زهير عندنا، وبدون شوشرة؛ نريد تعويضًا عشرين دفتر دولارات (مائتا ألف دولار) لكي نخلي سراحه، وإلا سنقتله ونرميه لكم في أقرب مزبلة لبيتكم، وأنتم أحرار، إذا أردتم شراء ابنكم فعليكم أن تدفعوا المبلغ بأسرع ما يمكن بدون نقاش وبدون أخذ ورد.

- صبركم بالله وأعطونا مجالاً.

- سنتصل بكم بعد نصف ساعة، وإياكم والاتصال بالجهات الرسمية... نحن نحذِّركم، وقد أعذر من أنذر، وذنبكم على جنبكم.

يتفق الجميع أن يقود الحديث شيخ بني تميم.

بعد نصف ساعة يتم الاتصال من تليفون خاص بدون رقم...

- هل وافقتم على المبلغ؟

- يا رجل اتقي الله فينا... من أين نجمع لكَ هذا المبلغ الكبير؟!

- من تكون؟!

- أنا شيخ مجبل، شيخ بني تميم.

- ولكنه صائغ ذهب ويقول: أنا عندي خير من الله.

- يا رجل ثق بالله هذا الذهب الذي رأيتموه في الفاترينات ليس له وإنما لصُيَّاغ الجُملة، ونسبة ربحه من الذهب المباع ليس أكثر من ٢٪ ، فهو يستلم الذهب المصاغ من صاغة الجملة في شارع النهر أو سوق الشابندر على الثقة، ويضع عليه ربحًا بسيطًا، وعندما يبيع عليه أن يسدد إلى صاغة الجملة، فمن أين يأتي لكم بما تطلبون؟! إنكم تطلبون منه المستحيل، فحتى لو باع ذهب صاغة الجملة لا يستطيع الوفاء بما تطلبون.
- الظاهر أنكم ما تريدون ابنكم، أنتم أحرار، بعدين ما يفيد الندم.

ويغلق التليفون.

شيخ مجبل ينظر في الوجوه الواجمة...

وهنا يصل الشيخ فيصل شيخ السواعد في بغداد وصديق مخلص لزهير.

الساعة تقترب من العاشرة ليلاً... يتصل أحدهم ومن تليفون آخر:

- ماذا قررتم ؟
- ابني، لا يحمل الله نفسًا إلا وسعها.
- المهم يا شيخ، أخر كلام عندي: اثنا عشر دفتر، ونحن لا نحب المجادلة وكثرة الكلام.

- طيب شلون نعرف أن زهير عندكم.

- بسيطة ، زهير لابس قميص سمائي وقمصلة سوداء وبنطلون أسود وحزام أسود وحذاء أسود.

- هنا أهله يقولون إن زهير ما يلبس حزام.

- مختصر الكلام هذا زهير تكلم معه، ولكن بسرعة.

- آلو ، شيخ فيصل ، لخاطر الله خلصوني بأي ثمن ، قبل ساعة ذبحوا شخصًا مسكينًا لأن أهله ما دفعوا لهم فدية... بيعوا البيت ، بيعوا كل شيء وافدوني... أنا بين الحياة والموت... شيخ فيصل أرجوك تصرف.

يغلقون التليفون.

بعد نصف ساعة يتصلون ثانية...

- ماذا قررتم ؟

- صدقني لم نتمكن من جمع أكثر من خمسة آلاف دولار ، ولا تنسوا أنكم سرقتم ذهب زوجته وبناته وكل ما في البيت من نقود.

- يا شيخ ، أنتَ تسمي هذا الذي أخذناه ذهب وفلوس ، هذا ما يكفينا مصرف يوم واحد... يعني أفتهم منك يا شيخ أنكم لا تريدون زهير حيًّا؟ تريدونه ميتًا... والسلام.

- اسمع ابني ، عائلته جمعت خمسة آلاف دولار ، وصندوق العشيرة يدفع أيضًا خمسة آلاف ، فيكون المجموع دفترًا.

- الدفتر خليه على حالك.

- ابني عيب مثل هذا الكلام أنا شيخ وأكلمك بأدب ، فكلمني بأدب.

- ماذا أقول لك يا شيخ ؟ أقول اثني عشر دفترًا ؛ تقول دفترًا واحدًا... ملخص الكلام: عشرة دفاتر لا تنقص دولارًا واحد.

ويغلق التليفون.

الكل في حيرة لا يعرفون كيف يتصرفون.

لم يتصل أحد بعد ذلك خلال الليل.

في السابعة صباحًا يتم الاتصال... وبعد مفاوضات يشترك بها شيخ فيصل وشيخ مجبل ؛ يخفضون المبلغ إلى خمسة دفاتر... وشيخ فيصل يؤكد لهم أنه لا توجد مثل هذه الإمكانية بالمطلق.

تُترك الأمور يومًا آخر على هذا الحال ، وزوجة زهير وبناته وولده الوحيد يبكون وينوحون ، ويقولون: اعطوهم ما يريدون ، المهم أبونا يرجع سالمًا.

- يا ناس استهدوا بالله... الصبر مفتاح الفرج.

يشير أحدهم بضرورة إخبار الشرطة... فيرفض شيخ فيصل وشيخ مجبل ، لأنه لو علمت العصابة ذلك سيقتلونه.

شيخ مجبل يشير على شيخ فيصل ضرورة أن يطمِّعوهم بمبلغ من المال حتى لا يفكروا بقتل زهير... شيخ فيصل يستحسن رأي شيخ مجبل ويقرر إعطاءهم دفتر ونصف ، والسلام.

العصابة تقطع الاتصال في اليوم الثالث للتأثير على المعنويات. وفعلاً تنهار معنويات أهل زهير.

في اليوم الرابع تتصل العصابة... يرد عليهم شيخ فيصل:

- لقد تمكنا من جمع دفتر ونصف لا غير، وأكثر من ذلك فنحن غير قادرين.

- انتظر على التليفون لنأخذ رأي رئيسنا...

تمرُّ دقائق:

- أخر الكلام: ادفعوا دفترين كاملين، وهذا لأجل خاطر الشيوخ، لأننا لا نريد أن نزعلهم علينا.

- نشد راية العباس؟

- نعم، نشد راية العباس... غدًا صباحًا الساعة العاشرة سنتصل بكم ونتفق على تسليم المبلغ وعودة زهير إليكم.

في تمام العاشرة صباحا من اليوم الخامس؛ يتصلون...

- جاهزين؟

- نعم.

- اسمع شيخ فيصل، ترسل الفلوس بيد شخص مؤتمن على طريق التاجي ونحن سننتظره في مدخل الطارمية، ولكن أعطنا نوع السيارة ورقمها ومواصفات الشخص.

- حاضر.

يتبرع أبو حسن بتسليم المبلغ... ولكن المشكلة أن المبلغ غير جاهز... فيرد عليهم شيخ فيصل:

- نحتاج ثلاث ساعات لتجهيز المبلغ، وساعة للطريق.

- طيب، سنتصل بكم في تمام الثانية بعد الظهر.

يسألون زوجة زهير:

- هل تملكين الآن دفترين؟

- لا والله.

- طيب يجب أن ندبِّر الدفترين على وجه السرعة.

زوجة زهير وأخوه وبحماية الشيوخ وعدد من الرجال يذهبون إلى محل زهير ويفتحون الخزانة (القاصة) ويخرجون كمية من الذهب، ويذهبون إلى شارع النهر يضعوها أمانة عند أحد صاغة الجملة الذي يرفض في بادئ الأمر أخذ الأمانة، ولكن بعد إصرار شقيق زهير؛ يأخذها ويسجلها أمانة، ويسلمهم دفترين من الدولارات.

يعودون للبيت في السيدية...

وفِي تمام الساعة الثانية بعد الظهر تتصل العصابة... يخبرهم شيخ فيصل أن السيارة بيك اب تويوتا بيضاء نصف قمارة رقمها ٦٥٠٩٤ بغداد، والرجل يلبس كوفية بيضاء وعقالاً ودشداشة (جلابية) بيضاء.

بعد ساعة زمن يشاهدون السيارة في طريق التاجي السريع ، فيتصلون بشيخ فيصل...

- من هذا مع السائق ؟!

- إنه ابن أخيه.

- ليتركه في الطريق ويسير لوحده.

ينزله في مقهى على الطريق العام ويستمر في السياقة لغاية تقاطع الطارمية... يتصلون بشيخ فيصل يطلبون منه أن يخبر السائق أن يتوقف خلف سيارة برازيلي حمراء تشعل فلاشًا ضوئيًا ويترجل من السيارة ويسلم المبلغ للشخص الجالس بجانب السائق.

- يعني الموضوع ثقة؟ عيب تضحكون على شيباتي.

- ثقة واطمئن يا شيخ ، وخلال ساعتين سيكون زهير عندكم في البيت في السيدية.

يلاحظ أبو حسن السيارة الحمراء البرازيلي فوكس واكن واقفة على حافة الطريق وقد شغلت الفلاش ، فيقف خلفها وينزل بهدوء ويسلم كيس الفلوس دون سلام ودون كلام.

ينظر الرجل داخل الكيس فيتأكد من المبلغ ، ويطلب من أبي حسن أن يسلمه مفتاح سيارته تحت التهديد... فيعطيه المفاتيح مرغمًا... فينزل الرجل وبيده مسدس ويطلب منه الابتعاد قليلاً ،

ويركب سيارة النصف حمل (البيك آب) ، وتنطلق السيارتان باتجاه طريق بغداد/ الموصل.

أبو حسن في حيرةٍ من أمره... ولكن بعد دقائق قليلة تقف قريبًا منه سيارة وينادون عليه: تفضل نوصلك إلى بغداد.

يصل أبو حسن إلى علوة السيدية، وينزل من السيارة وعندما يعبر الشارع يشاهد زهير واقفًا ينتظر سيارة أجرة، فيركض باتجاهه ويحضنه ويقبِّله.

- زهير الحمد لله على السلامة.
- يا محاسن الصدف.
- أين كنت يا أبا حسن ؟!
- كنت في التاجي ، دفعت دفترين للخاطفين لكي يطلقوا سراحك ، ولكن الكلاب استولوا على سيارتي وأخذوها الحقراء، ولو كنت أعلم أن خِستهم ستصل لهذا الحد لذهبت بسيارة أجرة.
- أبو حسن ولا يهمك، سأشتري لكَ سيارة أحسن منها.
- السيارة فِداءً لسلامتك. المهم الجميع بانتظارنا، وهذه سيارة أجرة قادمة، لنذهب إلى البيت.

يصلون إلى البيت فيجدون الجميع بانتظارهم في باب البيت... النساء تهلهل (تزغرد) وأولاده وبناته يقبِّلون يديه ويتمسكون به وهو يقبلهم ويبكي على حالهم، ثم يسلم على الجميع ويشكرهم؛ وخاصة شيخ مجبل وشيخ فيصل.

يجلس الجميع في غرفة الضيوف يشربون الشاي والقهوة، وزهير يقص عليهم قصته الحزينة والمخاطر التي تعرض لها، وكيف ذبحوا الرجل المسكين وهم يصيحون: الله أكبر، ورموا رأسه في حجره لغرض إرهابه وتخويفه...

- ولهذا قلت لكم أعطوهم كل ما يريدون، اشتروني بأي ثمن... خمسة أيام وأنا عيوني معصوبة عيوني ويداي مربوطتان، ولا شيء غير شُرب الماء... والله ذكريات أليمة... صدقني يا شيخ لا أعتقد أن اليهود يفعلون بأسراهم العرب كما يفعل هؤلاء المجرمون، وباسم الدين؛ والدين منهم براء، كونهم شواذ، سقط المتاع، سفلة، منحطون، بلا قيم ولا أخلاق.
- المهم الحمد لله على سلامتك، والفلوس تتعوض طالما أنت سالم.
- الحمد لله على كل شيء.

في اليوم التالي يتصل زهير بصديقه صاحب معرض "الإمام" في "البياع" ويرجوه أن يشتري له سيارة نصف حمل تيوتا موديل ٢٠٠٢ ويوصلها له للبيت... يسلمها إلى أبي حسن، الذي يزعل بدوره ويغضب على زهير، ولكنه يقتنع ويستلم السيارة ويعود إلى أهله في الإسكندرية.

• • • •

زهير في الليل يؤلمه، ضرسه فيتصل بابن خاله طبيب الأسنان الأخصائي فينصحه بأخذ حبتين من البراساتيمول (الفدون)، ويطلب منه أن يزوره في الغد في مستوصف الشعلة للأسنان للعلاج... وتشير عليه زوجته بمضغ بعض أعواد القرنفل ليخفِّف عليه الألم.

صباح اليوم التالي يركب سيارته ويذهب إلى الشعلة عبر طريق المطار الدولي فشارع العمل الشعبي إلى طريق جنينة وغزالية... ينتبه أن السيارة بحاجة إلى وقود فيقف قرب شابين يبيعان الوقود بالسوق السوداء، ويطلب منهما تعبئة عشرين لترًا.

فجأة، تقف سيارتان برازيلي الحمراء أمامه والزرقاء خلفه، وينزل منهما مسلحون ملثمون، ويطلب أحدهم منه أن يترك السيارة ويعطيه مفتاحها، لأنهم بحاجة لهذه السيارة الحديثة.

يفكِّر خلال لحظات: هل يهرب؟ لكن كيف وهو بين سيارتين؟ يطفئ المحرك، ويقول: تفضل محلل وماهوب... فيرد عليه: حاج أعد المفتاح إلى مكانه والله معك.

زهير في دهشة بعد أن ذهب السلابة وتركوه بأمان... إنها رحمة الله سبحانه.

يعود إلى البيت ويحكي لزوجته ما حصل... ويقرِّر ترك العراق وبأي ثمن.

يذهب للمحل ويحكم الخزنة ويحكم إقفال المحل.

يذهب إلى رضاب ويطلب منها أن تحضِّر نفسها للالتحاق بحسن في عمان...

بعدها يذهب إلى الإسكندرية لإقناع أبي حسن بالسفر معهم كمحرم إلى رضاب ليسمحوا لها بترك العراق ودخول الأردن، هكذا القانون ينص على أن المرأة يجب أن يرافقها رجل محرم عليها لحمايتها، يسمونه في القانون (المحرم).

يتفق مع الجميع أن السفر صباح الجمعة والانطلاق من بيته في السيدية مع السائق أبي عبدالله الذي سبق أن أوصل حسن بسيارته البهبهان إلى عمان والذي يعرف مكان سكن حسن في الهاشمي الشمالي.

ليلة الجمعة يبيت الجميع في بيت زهير...

ومع أول خيوط الفجر يتوكلون على الله... وينطلق بهم أبو عبدالله إلى عمان.

(٩)

الطريق السريع إلى عمان لا يخلو من مخاطر جمَّة... فهناك المفازر الأمريكية الجوَّالة والتي تمنع أي تحرك على الطريق السريع يتقاطع مع تحركاتها، وحينما تمر المفرزة الأمريكية؛ يجب على كافة السيارات التوقف والاصطفاف على جانب الطريق لحين ابتعاد المفرزة... كذلك يوجد عصابات الخطف المسلحة من السلابة والنهابة في مناطق محددة من الطريق يعرفها السائقون المتمرسون بالطريق.

تجاوز أبو عبدالله مدينة الفلوجة والرمادي، وعند الكيلو ١٦٠ فوجئ بسيارة بهبهان أجرة قادمة من الأردن تؤشر له بضوء السيارة العالي، فيدرك أن هناك خطر محدق على الطريق، وعندما اقتربت منهم السيارة أشَّر السائق بيدهِ أن هناك خطر على بعد خمسة كيلو مترات بإشارة بأصابعه الخمسة، ففهمها أبو عبدالله فاضطر إلى ترك الطريق العام والنزول إلى عمق الصحراء على الطريق الترابي، مياسم يعرفها وسبق له استخدامها.

انتظر بعض الوقت، ثم خرج، بترقب وخوف عادوا إلى الطريق العام... وهكذا تكررت الحالة عدة مرات، إلى أن

وصلوا إلى نقطة الكمارك الحدودية في طريبيل ، فتنفسوا الصعداء وارتاحوا قليلاً.

أخذ أبو عبدالله الجوازات وبرفقته الجميع إلى صالة الجوازات في الجانب العراقي لتُختم بختم الخروج ، قدَّم الجوازات إلى الضابط العراقي المسؤول ، الذي أخذ يفحصها وينظر في وجوه أصحابها... ويبدو أنه أُعجب بجمال رضاب غاية الإعجاب فأراد معاكستها:

- أين زوجك؟

- هذا عمي أبو زوجي، برفقتي كمحرم.

- طيب، ولكن جوازك مزور، يجب أن نعيدك إلى بغداد...

يتدخل زهير...

- حضرتكَ من تكون؟

- أنا عمها، وأنا رئيس تحرير صحيفة الصباح الجديد ورئيس نقابة الصحفيين العراقيين ، وهذه بنت أخي ، وأنا أيضًا برفقتها.

- العفو أستاذ، سوء فهم وشكوك.

- إن شاء الله خير.

يختم الضابط جواز رضاب مع بقية الجوازات ويسلمها إلى زهير.

على الفور يتوجه الجميع إلى السيارة، وينطلقون.

زهير يطلب من رضاب أن تعصب رأسها وتقطب جبينها ولا تبتسم البتة عندما يمروا على النقاط الأمنية، وخاصة في نقطة جمارك طريبيل الجانب الأردني.

الكل في غرفة العقيد مع جوازاتهم، ورضاب خلف عمها أبي حسن وقد لفت نفسها بالعباءة.

- أهلاً وسهلاً بالأخوة العراقيين، ما سبب زيارتكم للأردن؟

فيرد زهير:

- هذه ابنتنا زعلانة مع زوجها المقيم في عمان، ونحن أعمامها جئنا بها لنصالحها مع زوجها، ونحتاج إلى مساعدتك... رحم الله من قرَّب بين رأسين بالحلال، وأكيد فيها ثواب لنا ولكَ سيادة العقيد.

يختم العقيد الجوازات ويسلمها إلى زهير:

- تصلون بالسلامة، الأردن بلدكم، وأهلاً وسهلاً بإخوتنا العراقيين.

• • • •

في الطريق إلى عمان يلاحظ السائق أبو عبد الله خروفًا صغيرًا يمشي وسط الطريق لوحدة، الظاهر خروف تائه من قطيع وانقطعت به السُبل... يقف أبو عبدالله ويمسك بالخروف ويصعده في سيارته مع الجنط، ويتحرك... ولكن بعد دقائق

تتبعهم سيارة شرطة وتؤشر لهم بالوقوف... ويحاسب ضابط الشرطة أبا عبدالله عن سرقة الخروف... يتدخل أبو حسن وزهير ، ويدعي أبو عبدالله انه كان ينوي تسليمه لأقرب نقطة شرطة خوفًا عليه من أن تدهسه سيارات الحمل السريعة.

الضابط يعيد له إجازة السياقة ، ويؤكد عليه عدم تكرار ذلك وإلا مُنع من دخول الأردن.

يشكر أبو حسن وزهير الضابط.

يواصلون المسير ، فيدخلون عمان ، ويتوجهون إلى بيت حسن فيجدونه في استقبالهم بباب البناية وهو في غاية الفرح والسرور ، يقبِّل والده ويحضنه ويقبِّل يده ، وكذلك يقبِّل زهير ، ويقبِّل رضاب في جبينها ، ويسلم على عائلة زهير ويقبِّل الأولاد والبنات.

حسن جهَّز كل شيء لضيوفه الأعزاء ، شقته في الدور الأول جهزها بكل مستلزمات الراحة ، واستأجر شقة في الطابق الأول في البناية المجاورة لزهير وعائلته ، وجهزها بكل ما تحتاجه وملأ الثلاجة وكل حاجيات المطبخ الضرورية من طعام وشراب وماء شُرب نقي.

يرتاح الجميع في بيت حسن.

يختلي حسن برضاب ، فيحضنها ويقبلها قبلات كلها شوق وحنين ، ويرتشف شفاهها بقوة ، فتقول له: على مهلك يا حسن ،

كيف سأخرج ؟ سيلاحظون تورم شفتي واحمرار خدودي... انتظر يا حسن الله يخليك.

تذهب رضاب للحمام لتغسل وجهها بالماء البارد عدة مرات وتعود لغرفتها، فتُخرج حقيبة المكياج الصغيرة، وتداري آثار الاحمرار على خديها وشفتيها... ثم تذهب إلى المطبخ لتساعد زوجة زهير في إعداد طعام الغداء الذي حضَّره لهم حسن قبل قدومهم بقليل؛ دجاج مشوي من المطعم الذي على الناصية في بداية الشارع.

يأكل الجميع ويشربون الشاي فرحين...

يتفق زهير مع حسن وأبيه على ضرورة زيارة وسط البلد وخاصة الساحة الهاشمية التي له فيها ذكريات عندما كان جنديًا مكلفًا في الفرقة المدرعة الثالثة اللواء العاشر التي ذهبت على وجه السرعة إلى عمان لحماية الأردن من العدو الإسرائيلي بعد نكسة ١٩٦٧ واحتلال سيناء في مصر وهضبة الجولان في سوريا، ووجود حشود إسرائيلية على الحدود مع الأردن تستعد لاجتياح الأردن واحتلال عمَّان القريبة من الحدود.

يصلون الساحة الهاشمية... أبو حسن منبهر مما يرى...

- ما هذا التطور ؟! ما هذا البناء ؟! كيف تطورت الأردن كل هذا التطور في سنين معدودات؟!.. اسمع يا زهير ويا حسن، هذه الساحة كانت تنوخ بها الجِمال، ورائحة مخلفات الجِمال

تزكم الأنوف، وهناك مطعم واحد في هذا الركن يقدِّم أكلات بسيطة لرعاة الإبل، ومخبز واحد في الركن الآخر يسمونه الطابون، يقدِّم خبزًا يشبه تمامًا خبز التنور العراقي... لاحظا ما شاء الله البناء وكثرة الفنادق والمطاعم وجَمال الساحة ورونقها وكثرة الأشجار والزهور والمحلات العامرة... يعني العراق لو كان بقي تحت الحكم الملكي لكان الآن أكثر تطورًا وتقدمًا ورفاهيةً بسبب الاستقرار السياسي والتطور الاقتصادي وإدارة البلاد من شخصيات عراقية مقتدرة ومتمرسة ولها خبرة ودراية في إدارة البلاد، عراقيين أصلاء مخلصين للعراق يتمتعون بروح المواطنة ويحبون العراق ويخلصون له، ليس مثل هذا الزمن الأغبر شعيط ومعيط وجرار الخيط مثل ما يقول المثل العراقي الدارج. خلفوا العراق في كل المجالات؛ الله لا يرضى عليهم، الله لا يرضى على كل واحد تعمَّد أن يلحق ضررًا بالعراق وأهله.

ينتقلون بسيارة أُجرة إلى شارع الثقافة وشارع مكة، ويلاحظ أبو حسن العمارات والمحلات الحديثة والمولات والكازينوهات والمطاعم الفاخرة...

- تفضلوا شوفوا، والله كانت الأعظمية لوحدها أجمل بكثير من عمان، تصوروا خيرات العراق، وقارنوها بخيرات الأردن، هل تعرفون أن الأردن ليس فيه ثروات طبيعية كثيرة مثل العراق؟، هل تعرفون أن نهر الأردن الوحيد قد

غيرَّت إسرائيل مجراه ؟، هل تعرفون ان البحر الميت لا تعيش فيه الأحياء المائية؟.

- سمعت عمي زهير... طلع أبي يفتهم بالسياسة والاقتصاد والتاريخ، يعني مثقف.

- طبعًا أبوك يفتهم... كثير من الفلاحين يفتهمون وكثير منهم أصبحوا قادة... مثل الرعاة ، لاحظ كل الأنبياء رعاة غنم اختارهم الله عز وجل ليكونوا أنبياء ينورون الناس للإيمان والتوحيد والخير ومكارم الأخلاق.

• • • •

زهير يقول لهم:

- هنا مطعم عراقي اسمه "الزاد والملح" يقدِّم وجبات سمك مسكوف ، أكله طيب ومعظم رواده عراقيون ، ضروري نتناول الغداء به.

- والغداء في البيت الذي جهزته رضاب وعمة أم ياس ؟... عمو زهير تريد الصدق، أنا أحب أكل عمة أم ياس.

- الطعام راح يبقى للعشاء... اتوكلوا على الله ودعونا نتغدى سمك مسكوف وخبز تنور حار وطرشي النجف.

يلاحظون أن معظم رواد المطعم شخصيات عراقية مرموقة من أدباء وأساتذة وسياسيين وفنانين ومطربين معروفين...

يرتاحون نفسيًا لهذا العدد الكبير الذين كان من بالغ الصعوبة أن يلتقون معهم في بغداد ويجلسون ويتسامرون معهم.

تحدث مناقشة ممتعة بين زهير والملحن المشهور طالب القرقولي... يسحب طالب حسرة عميقة على بغداد وعلى الحياة في بغداد وعلى مطاعم بغداد والأكلات العراقية...

- بشرفك طعم هذا سمك الأحواض مثل طعم سمك البني والشبوط والقطان ؟ مستحيل أن يكون هناك سمك في كل الدنيا بطعم ومذاق سمك نهري الفرات ودجلة.

- والله يا أستاذ طالب ليس مهمًا البنايات التي دُمرت ، ليس مهمًا الأسماك... المهم يا أستاذ طالب الإنسان الذي أهينت آدميته وحُطمت وطنيته ودُمرت إنسانيته... من الممكن مع الوقت أن نعيد بناء المصانع ونعمِّر المزارع، ولكن في غاية الصعوبة إعادة بناء الإنسان.

- والله صدقت يا أخ زهير ، ولكن هذا العراق عبر التاريخ دُمِّر عدة مرات ولكن سرعان ما يعاد بناؤه... المشكلة العراق منذ بدء الخليقة شعب ثوري ، مثلما هو مهد الحضارات ومهبط الأديان والأنبياء فهو كذلك مهد الثورات والحركات والاجتهادات والمذاهب... أنا زرت مصر مثلما أنت زرتها أثناء دراستك ولاحظت هدوء انسياب نهر النيل العظيم ، بينما لاحظ انسياب ماء نهر دجلة الخالد وفورانه

وسرعة جريانه وكثرت السويرات المائية الجارفة... هذا طبع العراق والعراقيين منذ عهد السومريين والبابليين وسبي اليهود والأشوريين وحتى العباسيين وفتوحاتهم العظيمة وقوتهم الضاربة ، بحيث أن هارون الرشيد كان يخاطب الغيمة فيقول: (اهطلي أينما شئتِ فخراجك سيعود لبغداد) ، دلالة على القوة والاقتدار والمنعة... وقصص "ألف ليلة وليلة" خير دليل على الترف والغنى والخير الوفير والحكمة والتطور في جميع مجالات العلوم ، حتى غدت بغداد عاصمة الدنيا... وحتى في العصر الحديث من منا يستطيع أن يتجاهل احتلال عدد من المدن الإيرانية واحتلال الكويت... بينما نلاحظ إخوتنا المصريين من عهد الفراعنة العظام لا يفكرون بالتوسع والحروب خارج أرض الكنانة، وثوراتهم سلمية، لم يقتلوا ملكًا أو رئيسًا قادهم مهما كانت أعماله وعلاقاته وسياسته... بينما ثورات العراقيين كلها دموية ، يُقتل فيها الملوك والرؤساء والقادة ويُمثل بهم... ويبقى أملنا كبير بزرع روح المواطنة وحب الوطن في أبناء الشعب العراقي بالرغم من أنف الطامعين والمتكبرين ليعود العراق بلد الخير والحريّة... وطبعًا للديمقراطية ثمن... والعراقيون الآن يدفعون الثمن، والعاقبة بالنتائج.

• • • •

يعودون إلى البيت فيجدون الجميع بانتظارهم على الغداء... وعندما تعرف رضاب أنهم تناولوا الغداء في المطعم؛ تنفعل ويحمر وجهها وأرنبة أنفها وتعاتبهم بمرارة:

- أنا وأم ياس من صباح الله نشقى لتحضير وليمة لكي تشاركونا، ونتحمل مع الأطفال الجوع بانتظاركم تقديرًا واحترامًا، وأنتم بالمقابل لا تحسبوا لنا أي حساب، فهل هذه عدالة ؟! وهل هذا من الإنصاف والأصول ؟!... ولو كلامي هذا يزعجكم، ولكني في الحقيقة زعلانة ومصدومة، والمفروض عمي أبو حسن لا يوافق على تصرف زهير وحسن.
- عمو رضاب، اعتبرونا لم نتغدى، ونحن سنأكل معكم، ولا تخلقي لنا مشكلة من لاشيء... توكلوا على الله، وبسم الله، ولنتناول الغداء كلنا سويةً... رضاب ما عاش الذي يزعجك، ونحن على خطأ وسوف لا نكررها أبدًا وحياتك يا غالية... خلاص صافي يا لبن.
- عمو أنا آسفة وأعتذر منك لأن صوتي ارتفع، أرجوك سامحني.
- قلنا صافي يا لبن.

عند المساء يأتي أبو عبدالله السائق إلى بيت حسن، ويتفق مع أبي حسن أن يعود معه غدًا صباحًا إلى بغداد... وهكذا كان... الكل يودعون أبا حسن صباح اليوم التالي بحرارة، وحسن

يحضن أباه ويقبله ويشمه ويبكي على كتفه... وأبوه يربت على كتفه ويطلب منه ان يتواصل معهم وأن يهتم برضاب ويداريها ويحافظ عليها وعلى طفلها... ويسلم على زهير وعائلته ويطلب منه أن لا يفارق حسن مهما كلّف الأمر.

(١٠)

زهير ينسق الأمور مع أولاده في السويد ويؤكد عليهم ضرورة إيجاد شخص مجرب وموضع ثقة قادر على تهريبهم من الأردن وإيصالهم للسويد وليس مهم الثمن بقدر أهمية عامل الأمان وضمان الوصول.

ياس ابن زهير الكبير مهندس شاطر وعنده علاقات واسعة في ستوكهولم، يعرف صاحب مكتب سفريات عراقي اسمه جهاد سبق أن قام بإيصال عدد من العراقيين بنجاح إلى السويد وأسعاره معقولة ومقبولة... يتفق ياس معه على إيصال والده وأمه وإخوته وبنفس الوقت حسن ورضاب كعائلة واحدة ودفعة واحدة.

بعد أسبوعين من الاتفاق يسافر جهاد إلى عمان ومعه جوازات سفر سويدية ملائمة للجميع بالعمر والشكل تقريبًا... ينقلهم من عمان إلى دمشق، ومن دمشق إلى إسطنبول... بعد ثلاثة أيام، الجميع في صالة الترانزيت في إسطنبول ينتظرون الطائرة التي تنقلهم إلى باريس كمحطة ترانزيت ثانية... تمر أكثر من ساعة انتظار يحسبون دقائقها، وجهاد يراقب الساعة ويراقب الوجوه ويجلس بعيدًا عنهم وكأنه لا يعرفهم.

فجأة يتحرك الجميع إلى المدخل وخلال الخرطوم بدخول الطائرة ويأخذون أماكنهم بشكك طبيعي.

تحط الطائرة في مطار "شارل ديكول الدولي" ويتحركون إلى صالة الانتظار يمشون خلف جهاد... يجلسون في صالة الترانزيت... الانتظار هذه المرة طويل نوعًا ما ؛ ساعتان ، تمضي الساعة الأولى ثقيلة، ولكن بسلام.

رضاب تحتاج الحمام ، فتطلب من حسن أن يدلها على الحمامات ، فيشير لها أنها خلفهم... تتحرك رضاب إلى الحمامات.

حسن وزهير يتحدثان بلغة عربية وبصوت مسموع، يسمعهما ضابطا أمن المطار اللذان يلبسان ملابس مدنية، فيستغربان ذلك، ويتقدمان إلى زهير وحسن ويسألانهما عن وجهتهما.

يرد زهير بلغة إنكليزية سليمة:

- نحن مغادرون.
- ومن أين قدمتم؟
- قدمنا من إسطنبول.
- أين جوازاتكم؟
- نحن عائلة كبيرة
- اتبعونا جميعكم.

يتحركون باتجاه غرفة سيطرة أمن المطار ما عدى جهاد ورضاب لأنها مازالت في الحمامات.

يتم التحقيق مع كل واحد منهم على حدة... تتضارب الإفادات، فيتم احتجاز الجميع.

تخرج رضاب من الحمامات فلا تجد أحدً... ترتبك، ولكن جهاد يبادرها:

- تفضلي معي إلى البوفيه ولا ترتبكي... مجموعتنا انكشف أمرهم، وحاليًا يحققون معهم، والله الساتر، والسبب حسن وزهير لأنهم كانا يتكلمان بالعربي وبصوت مسموع لفت انتباه ضابطي الأمن، فشكا بهما، وما علينا إلا الانتظار... والله كريم

ينتظران أكثر من ساعة، دون نتيجة.

يطلب جهاد من رضاب البقاء في البوفيه... ويذهب للاستفسار بشكل غير مباشر... يعرف أن الجميع تم احتجازهم وسيرحلون على أقرب طائرة إلى إسطنبول أو دمشق.

يحين موعد الطائرة في مطار شارل ديكول في باريس.

يرحلون إلى إسطنبول...

جهاد يقول لرضاب:

- من الحكمة أن نكمل الطريق وأنا سأبذل قصارى جهدي بتسفيرهم مرة أخرى وخاصة زوجك حسن، ويجب أن تثقي بي.

رضاب مترددة.

يتصل جهاد بصديقة ياس ابن زهير ويعلمه بالخبر المؤسف دون ذكر أسماء طبعًا، ويطلب منه إقناع رضاب أن تسافر معه ليسلمها لهم في ستوكهولم.

تقتنع رضاب بكلام ياس...

تصل ستوكهولم، وتجد ياس وأخاه بانتظارها في المطار... تذهب معهما إلى البيت وهي لا تعلم مصير حسن وزهير وعائلته.

زهير وعائلته يقررون العودة من إسطنبول إلى بغداد لأنه يعرف حجم الأذى الذي سيلاقونه من قِبل الأمن السوري، فيأخذ الأمور من قصير ولكي لا يلحق عائلته أي أذى... يعودون مباشرةً من إسطنبول إلى بغداد، باستثناء حسن الذي يصر على البقاء والالتحاق برضاب وبأي ثمن ومهما كلفه ذلك من مخاطر.

يبذل زهير جهودًا استثنائية لإقناع حسن بالعودة معهم إلى عمان وهناك يقررون إما العودة للعراق، أو ركوب مغامرة

ثانية مع نفس المهرب الذي تعهد بتكرار المحاولة إذا فشلت المحاولة الأولى.

- طيب ومصير رضاب يا عمو زهير؟

- إنها في أيادٍ أمينة، إنها مع إخوانها؛ أولادي.. اصبر يا حسن إن الله مع الصابرين.

- لا تنسَ أن رضاب حامل ولم يبقَ على موعد ولادتها الكثير.

- هذه أوربا وخاصة السويد؛ عندهم العناية بالطفل والمرأة قبل كل شيء يعني أولوية مطلقة... فكيف بامرأة حامل وزوجها غير موجود... يقولون على سبيل المزاح إن الدولة السويدية تعطي الأولويات بالعناية والاهتمام بالطفل أولاً ، والمرأة ثانيًا، والكلب ثالثًا، والرجل رابعًا.

- يعني أنتَ تصطحبني إلى بلد أعيش فيه يفضِّل الكلب على الرجل ؟!

- يعني يقولون، ولست متأكدًا من ذلك.

- أشكرك عمو زهير ، وأشكر الله الذي عرَّفني بك... سآخذ الأمور من قصير وارجِّع رضاب ونعيش في بلدنا على الحلوة والمرة.

- يا حلوة... لم يبقَ في بلدنا شيء جميل: نهب، سلب، قتل، سرقة... كل شيء مباح... أنا أفضِّل أن نعيش في دمشق أو عمان أحسن ما تحدث لنا في بغداد مصيبة نندم عليها.

بعد جهد جهيد ومحاولات عديدة يتمكن زهير وحسن من الحصول على حجز العودة على الخطوط الفرنسية إلى عمان.

يراجعون مكتب أبا محمد في الهاشمي الشمالي في العاصمة عمان فيرحب بهم الرجل ويعيد لهم المفاتيح فيجدون بيوتهم كما هي لأن الوقت لم يكون كافيًا لإعادة الشقق للمالك.

زهير يكرم أبا محمد بمائة دولار ، فيرفض هذا مقدِّرًا حجم الضرر الذي أصابهم جراء هذه الرحلة الفاشلة.

حسن يعيش في شقته لوحده يجتر ذكرياته مع رضاب... جسده في عمان وروحه معها... يذهب إلى مكتب اتصالات قريب ويحاول الاتصال بها دون فائدة... فسيتعين بصديقه زهير ويتصلون بولده ياس الذي يطمئنهم.

(١١)

شقة ياس ابن زهير عبارة عن غرفة وصالة مساحتها خمسون متر مربع... يترك الغرفة لرضاب، وينام هو في الصالة.

رضاب تستسلم للأمر الواقع وتشكره على موقفه النبيل هذا.

رضاب متعبه فكريًا وجسديًا وأفكارها مشوشة وهي في بلد غريب لوحدها مع شاب تتعرف به لأول مرة، ولو انه ابن زهير، ولكنها لا تعرف عنه شيئًا غير انه ابن زهير.

يطلب منها ياس أن يذهبا إلى مطعم قريب لتناول الطعام... تعتذر منه لأنها متعبة، وممكن أن تأكل أي شيء في البيت.

يذهب ياس ويجلب طعامًا جاهزًا من أقرب مطعم...

- ياس كُلْ أنت، أنا لا شهية عندي للطعام، عندما أجوع سأتناول شيئًا من هذا الطعام، ولكن لا تنسَ أن تضع الباقي في الثلاجة لكي لا يتلف.

تدخل غرفتها وتلبس ثوب النوم وتندس في فراشها وتنام من شدة التعب والتفكير المضني.

ياس يتناول العشاء ويعمل له فنجان قهوة ويتفرج ساعة زمن على التلفزيون، ويفرش فراشه على الكنبة الموجودة في الصالة، ولكنه يتذكر أنه لم يخرج بيجامته من الدولاب

الموجود في غرفة النوم... يتردد في بادئ الأمر ، ثم يقرر ضرورة جلب البيجامة من الدولاب ، ولكن بهدوء دون أن يزعج رضاب.

يفتح باب الغرفة بكل هدوء ، ورضاب تغط بنوم عميق ، وقد كشف الغطاء عن فخذيها.

ياس الشاب المراهق ينبهر بجمال جسم رضاب وطراوتها وبياض جسمها وكأنه يرى الدماء وهي تسري في أوردة فخذيها... يبقى في لحظات ذهول متسمرًا بباب الغرفة وعيونه شاخصة مركزة على جمال جسم رضاب وفخذيها العاريين.

رضاب تشعر بأن هناك نفسًا غريبًا في الغرفة... فتتململ... وبالكاد تفتح عينيها لتتأكد مما يدور حولها... فترى ياس واقفًا ومركزًا نظره على جسمها، ولا تعرف أن فخذيها مكشوفان.

تمر ثوانٍ محرجة على رضاب لا تعرف كيف تتصرف... لكنها تلاحظ أن ياس اقترب من سريرها ومد يده يتلمس فخذها ويمسح بحنية عليه.

تفز من نومها مرعوبة...

- ياس!... ماذا تريد ؟

- عفوًا أردت تغطيتك لكي لا تبردي... جئتُ لآخذ بيجامتي من الدولاب

كان صوته بحوحًا وخجلاً ومتلعثمًا... لا يعرف ماذا يقول وماذا يبرر.

تضع يدها على بطنها وتتحسس ابنها... وتقول:

- ياس خذ بيجامتك واخرج من الغرفة، ولا تكرِّر ذلك أبدًا.

- آسف وأعتذر ، وسأنقل حاجياتي الضرورية إلى الصالة... أكرِّر أسفي.

- حصل خير.

يرتبك، ويأخذ بيجامته بسرعة ويترك الغرفة.

رضاب تنهض وتغلق الباب بقوة وتغلقها من الداخل وتسحب كرسي الراحة وتضعه خلف الباب تحسبًا أن يكون ياس لديه مفتاح آخر للغرفة.

رغم أنها مجهدة ونعسانة وجوعانة؛ تبقى مستيقظة حتى انبلاج نور الصباح.

ترتدي بنطالاً وفوقه ثوب طويل نوعًا ما ، وتشد ربطة على رأسها وتذهب إلى الحمام بهدوء.

لا تتناول أي إفطار ، وتأخذ أوراقها الرسمية تريد الذهاب إلى دائرة الهجرة ، رغم أنها لا تعرف العنوان ، ولا تتحدث اللغة السويدية، كما أن لغتها الإنكليزية ضعيفة لا تساعدها كثيرًا.

رضاب في حيرة من أمرها... هل تستعين بيأس الذي أصبحت لا تطيقه ولا تحب مساعدته ولا تأمن له، رغم أنه ابن زهير أعز الناس لديها...

- إلهي، ماذا أفعل؟

وهي غارقة في التفكير والقلق تسمع جرس الباب يدق...

- يا الله، الفرج.

تتحرك وتفتح الباب، وإذا بشقيق ياس الصغير "عباس" قادم لزيارتهما...

- ياما أنت كريم يا الله... تكلم نفسها.

- أهلاً وسهلاً عباس... كيف أحوالك؟

- الحمد لله بخير، جئت أسأل عنكِ، أبي اتصل بي وقال لي: تذهب إلى بيت أخيك وخليك قريب من رضاب وتسهر على راحتها، فهي أختكم الكبيرة، إني اعتمد عليك أكثر من ياس.

رضاب تطلب من عباس أن يأخذها إلى دائرة الهجرة لتسلم نفسها رسميًا ولتكون الدولة السويدية مسؤولة عنها وعن ولادتها التي أصبحت قريبة... كلها أربعون يومًا ويشرف المولود الجديد ابن حسن.

يستيقظ ياس من النوم على صوت المناقشة... ويقول:

- يجب أن نأخذ رأي أبي.

- ياس، هذه قضية شخصية تهمني أنا، يعني أنا الذي يقرر... وأنا قررت أن أسلّم نفسي هذا اليوم إلى دائرة الهجرة، وعباس سيساعدني... ولمعلوماتك أنا لا أريد أي مساعدة منك، لأنك إنسان مع الأسف لا تخجل وليس عندك أصول... وأنا مندهشة كيف تكون ابن الرجل الطيب الشريف زهير.

عباس فاغر فاه لا يعلم ماذا عمل ياس... يسأل بتردد:

- خالة رضاب، ماذا فعل ياس ؟!.

- لا خالة، سوء فهم... وأنا لابد أن أسلّم أمري إلى الدولة السويدية... إذا جاءني مخاض الولادة أين أذهب وأي مستشفى ستقبلني وليس عندي أوراق تثبت وجودي في هذه البلاد الغريبة.

ياس يعتذر من رضاب... ويبكي:

- خالة والله ورأس أبي كان قصدي شريف، والله العظيم أنتِ فهمتني غلط.

- المهم عندي الآن أن نذهب إلى دائرة الهجرة... هذا موضوع نهائي وحاسم ولا رجعة فيه.

عباس:

- لنتوكل على الله.

ياس:

- سأذهب معكم لأني أعرف مكان الدائرة

تسلّم رضاب أوراقها بعد انتظار قليل وترحب بها المسؤولة أجمل ترحيب بعد أن تعرف أنها حامل في شهرها الأخير، وأن زوجها ليس برفقتها.

تتعاطف معها المسؤولة بقوة، وتكمل أوراقها، وتعدها بسرعة الحصول على الإقامة لتبدأ بعدها العمل على سحب زوجها أصوليًا قبل موعد ولادتها... لأن من عادات أهل السويد ضرورة وجود الأب قُرب الام ساعة ولادتها، ليخفِّف عنها الوحدة وآلام الولادة ويرفع معنوياتها ويطرد عنها الخوف.

- مبدئيًا هل تفضلين الإقامة مع أقربائك، أم في المجمع السكني للاجئين الجُدد لحين حصولك على الإقامة وتخصيص شقة سكنية خاصة بكم لأنكم ستصبحون ثلاثة قريبًا جدًا.

- أرغب في السكن في المجمع مع اللاجئين الجُدد.

- كما تشائين، رقم غرفتك ٢٠ في الطابق الأول حيث يوجد المطعم... وهذه بطاقة مواصلات ومبلغ بسيط من المال لتسيير أمورك لحين تنظيم كافة الأمور... وسنخصص لكِ مسؤولة اقتصادية لتسهيل كل طلباتك، اسمها "كريستينا"، ستزورك اليوم في غرفتك وتتعرف عليك... مع السلامة.

تلتقي رضاب مع كريستينا التي تتعاطف معها وتقدِّم لها كل أنواع المساعدة الممكنة.

ترتاح رضاب نفسيًا وتفرح بهذا التقدم وهذه النقلة النوعية التي ستساعدها في تكوين أسرة، خاصةً بعد وصول زوجها حسن وبعد أن يشرف المولود الجديد.

- شكرًا لكَ يا ربي سهلت عليَّ الأمور المعقدة وتم حلها بيسر وسهولة... حقها أمي عندما كانت تقول (الله يقطع من هنا... ويوصل من هنا) على كل حال الحمد لله والشكر... نعمة... والله نعمة.

• • • •

تتعرف رضاب على جارتها الروسية "سفيتا" في الغرفة المجاورة... شابة جميلة ولكنها مبتئسة ومسحة حزن عميقة على وجهها، قليلة الكلام رغم تعاطف جميع اللاجئين معها لقصتها الحزينة التي تدمي القلب... تتعاطف معها رضاب وتحبها وتقترب منها وتفهم قصتها بمساعدة اللاجئين الساكنين في المجمع... يزداد تعلقها بسفيتا لأنها مظلومة، ظلمها الزمن، والقانون لم يرحمها ويرحم زوجها البريء الذي حاول قدر طاقته إنقاذ الناس فدفع الثمن عشر سنوات من عمره وغرامة لا يقدر على سدادها...

والقصة كما فهمتها رضاب من صديقتها الروسية سفيتا :
أنها وزوجها المهندس البحري "سريوجا" كانا مسافرين على متن باخرة تجارية روسية تحمل البضائع والمسافرين...

تحركت من موانئ القرم في البحر الأسود وعبرت مضيق البسفور ودخلت مياه البحر الأبيض المتوسط.. عبرت قناة السويس إلى البحر الأحمر والخليج العربي ودخلت المحيط الهندي... كل شيء يسير على ما يرام... القبطان "أجنادي مالينوف" يحيي الجميع ويشرب نخب صحتهم برفقة ابنته الشابة الجميلة "گاله" ، التي استأذنت من أبيها لترقص رقصة الفالس مع المحتفلين في الصالة الكبرى... الموسيقى صاخبة والمسافرون فرحين لأن باخرتهم عمًّا قريب ستدخل البحر الأصفر إلى الصين...

في غمرة الأفراح وشرب الراح ورقص الجميلات المِلاح... اصطدمت الباخرة بالكرين العملاق الذي يبحر عكس الاتجاه بسبب الموج العالي والريح العاتي والضباب الكثيف... تحطمت الباخرة وانشطرت وغاصَ الكرين العملاق في الأعماق خلال دقائق معدودة...غرقت الباخرة ومن فيها خلال أقل من ساعة من الزمن...

أربعة من الشباب المسافرين مفتولي العضلات تمكنوا من إنزالِ قارب إنقاذ والباخرة تغوص إلى أعماق المحيط، تمكنوا من التقاط عدد من المسافرين المتشبثين بلوحات خشب من حطام الباخرة معظمهم من كبار السن نساءً ورجالاً ، إضافة لـ"سفيتا" وزوجها سريوجا وثلاث نساء ركبوا زورق الإنقاذ منذ بداية إنزاله للبحر... بلغ عدد ركاب الزورق ثمانية عشر

بينما الاستيعاب الأقصى للزورق اثنا عشر... وجدوا كثيرًا من علب الطعام الطافي وحاويات وأكياس ماء صالح للشرب... كلٌّ هذا أثقل الزورق وجعل حافته بمستوى وجه ماء المحيط الذي أخذ يتسرب إلى الزورقِ عندما يهتز بسبب تحرك أحدهم من مكانهِ وبسبب الأمواج... سريوجا زوج سفيتا التقط قبعة القبطان ميلانوف الذي اختار ألا يترك باخرته حتى غرق معها لأنه فارس وهذهِ أخلاق الفرسان... أعلن سريوجا نفسه قبطانًا بعد أن وضعَ القبعة البيضاء ذات القيطان الذهبي على رأسه واختار الشباب الثلاثة مساعدين، وصاح بالآخرين: هل أنتم موافقون ؟ فأجاب الجميع بالروسية : "سكلاسنا" أي: "نعم، موافقون".

قال: أولاً وقبل كل شيء، كلٌ يَثبتْ في مكانهِ؛ بعد أن وزَّعهم حسب أوزانهم ليستقر الزورق... ثانيًا: على الجميع أن يتخففوا من ملابسهم قدر الإمكان لأن الجو معتدل، وأن يلقوا كل شيء ليس ضروريًا... ثالثًا: الشباب المساعدون مسؤولين عن توزيع الطعام والماء، لكل فرد رشفتان ماء في اليومِ ووجبة طعام (قوت ألما يموت).

على الزورق رجل كبير السن برفقة زوجته، مصاب بعجز في القلب ويتنفس بصعوبةٍ بالغة، وامرأته ترعاه وتسهر عليه؛ ساعة تهفي عليه وساعة تنفخ في فمهِ وساعة تدلك أطرافه وصدره وتعطيه نصف حصتها من الماءِ ووجبة حصتها

إضافة لوجبته عسى ولعل يتماثل للشفاء... كما يوجد رجل مُسِّن آخر أصيبَ بجرحٍ بليغ، التهبَ الجرح وارتفعت درجة حارته فأخذ يهذي ليل نهار ويصرخ من شدةِ الألم، وليس لديهم أي علاج.

بدأ الماء المتسرب للزورق يزداد بسبب ثقل الحمولة، ولا أمل يلوح في الأفق... الشباب الثلاثة المساعدون يعملون بكل قوة لتنظيف قعر الزورق من الماءِ المتسرب من الحافة باستمرار، ولكن دون فائدة، لأن كمية الماء مستمرة في الازدياد... فيفكر الكابتن سريوجا من موقعِ المسؤولية في كيفية إنقاذ الزورق من الغرقِ... أمر مساعديه بإلقاء الرجل المريض الذي يهذي في المحيطِ لأنه لا أمل يرتجى منه... إلا أن الزورق ما زال غير مستقر... فأصدر سريوجا أمرًا صارمًا إلى مساعديه بالتخلصِ من الرجلِ المريض بالقلب والذي لا أمل في شفائه إنقاذًا للآخرين... تشبثت زوجته به ومنعتهم، لكنهم أمسكوا بها بقوةٍ وألقوه في المحيطِ، وما أن تركوها بعد لحظات حتى ألقت بنفسها وتمسكت بزوجها وهي تقول له: لا تخف أنا معك، لقد أخذنا حقنا من الحياةِ لندع الآخرين يعيشون.

استقر الزورق نوعًا ما خاصةً بعد أن تخلصوا من بعض الطعام... لكن الماء الصالح للشُرب يوشك على النفاذ... أمر القبطان سريوجا مساعديه بتوزيع وجبة واحدة من الماء لضمان الحياة للجميع...

الماء الباقي يكفي ليومين فقط وقد مرَّ عليهم خمسة وأربعون يومًا وهم على هذهِ الحال حتى هزلت أجسامهم وخارت قواهم... وإذا بسفينةِ إنقاذ راجعة من التحقيق في أمرهم تشاهدهم وتعمل على إنقاذهم ونقلهم إلى الأراضي الروسية.

تم إسعافهم وتقديم المساعدات الطبية لهم، وأُدخلوا المستشفيات لإجراء الفحوص الطبية.

وبعد أن تشافوا وتعافوا؛ أحيل سريوجا كالينوف للمحكمة، ووُجهت له من قبل الإدعاء العام تهمة قتل ثلاثة أبرياء عن عمد وسبق إصرار مع التخطيط المسبق... دافع عن نفسهِ بأنه أنقذ حياة خمسة عشر شخصًا وضحى باثنين ميئوس من شفائهما، وأنه ليس مسؤولاً عن المرأة لأنها هي التي اختارت الموت مع زوجها المريض...

شهد له الجميع بصدق وأمانة وأثنوا على قيادته... لكن رئيس القضاة بعد المداولة قال له: أنتَ لست الله لتقرر مصير البشر.

حكمت عليه المحكمة بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات وغرامة مائة وخمسين ألف روبل كتعويض، بخلاف تعويض التأمين... صدر القرار وأُفهم علنًا قرارًا قابلاً للتمييز.

زوجته صُدمت من هذا القرار المجحف بحق زوجها سريوجا كالينوف الذي لم يؤذي في حياته ذبابة... ولكن هذا قدرهما... زوجها أنقذ الآخرين وجزاؤه أن يقضي عشر سنوات زهرة

شبابه في السجن... وتبقى هي وحيدة تعاني آلام الفراق... ولهذا قررت الهجرة إلى السويد وطلب اللجوء الإنساني بسبب سجن زوجها لأنه حاول إنقاذ الناس... وهي حاليًا في المجمع تنتظر الإقامة الرسمية من دائرة الهجرة ، عسى ولعل أن يتعاطف الموظف المسؤول عن إضبارتها ويمنحها الإقامة لتبقى في السويد تنتظر زوجها بعد أن يفرج الله كربته ويفك سجنه.

تقول لها رضاب بألم :

- إن شاء الله سيخرج يا سفيتا... ربنا يكون في عونك... وأنا سأحاول مساعدتك على قدر إمكاناتي وخاصةً بعد وصول زوجي حسن من عمان... من اليوم اعتبريني أختكِ وصديقتكِ التي تحبكِ.

- صدقيني يا رضاب هذا يشرفني ويشد من أزري ويقويني على متاعب الحياة... وأنا أتمنى لكِ الخير كله وسأفرح لوصول زوجك وتكتمل سعادتي بولادتك طفل كامل الخلقة وأنتِ بصحة جيدة.

- إذن عليكِ أن تساعديني في شراء بعض الحاجات الأساسية لشقتي الجديدة ، فمن الضروري عندما يصل حسن أن يجد بعض الأثاث في الشقة.

- رضاب تدللي سأكون عونًا لكِ وأساعدكِ في كل شيء.

• • • •

رضاب تؤكد لكريستينا أنها بحاجة ماسة لزوجها لأنها خائفة من ساعة الولادة، فتعدها أنها سنبذل قصارى جهدها بحصولها على الإقامة أولاً ومن ثم العمل على مجيء زوجها لها قبل موعد ولادتها.

كريستينا مع مسؤولة دائرة الهجرة يعطيان لموضوع رضاب أهمية خاصة... وفعلاً خلال أقل من أسبوع تبشِّر رضاب بحصولها على الإقامة الرسمية، وأنها من هذا اليوم سيكون لها راتب وشقة وحقوق ، وعليها أن تنتظر مجيء حسن أولاً ثم حصولها على الجنسية السويدية لتكون مواطنة كاملة الأهلية لها حقوق وعليها واجبات يحميها القانون.

قبل ولادتها بخمسة أيام تبشرها كريستينا باستحصال الموافقات على مجيء زوجها ، وأن عليه مراجعة السفارة السويدية في عمان لاستلام الموافقة والتهيؤ للسفر إلى ستوكهولم عاصمة السويد ، وأنه قد تم حجز تذكرة سفر له على الخطوط الجوية السويدية بعد ثلاثة أيام ، ومن الضروري أن يكون هناك أحد في استقباله، أو سيرسلون هم من يستقبله.

رضاب تستحسن الأمر ولا تحب أن تثقل على أولاد زهير.

تشكر كريستينا على كل شيء ، فتبادرها كريستينا بمفتاح الشقة التي خصصت لهم في منطقة شارل هولمن في البنايات الجديدة فتكاد رضاب أن تطير من الفرح.

(١٢)

يصل حسن يوم الاثنين وهو في لهفة للقاء حبيبة عمره رضاب... ويتم اللقاء بعد أيام عصيبة مرَّت عليهما كانا يحسبانها بالساعات والدقائق... يحضنها ويقبِّلها وهي تضع يديها على بطنها...

- حاسب حسن، على كيفك، الطفل.

- بشِّري رضاب، ولد أم بنت؟

- اطمئن ولد جميل مثلك.

- شكرًا لله وألف شكر ، لقد حُلت كل العُقد التي كنتُ أظنها لا تحل ، ولكن كما يقول الشاعر:

ضاقت، فلما استحكمت حلقاتها فُرجتْ، وكنتُ أظنها لا تفرجُ

يذهبان لاستلام شقتهما الجميلة في الدور الرابع والتي مساحتها ثمانون متر مربع ، عبارة عن غرفتي نوم ومطبخ جميل فيه طباخ حديث ومجمده وثلاجة وكاونترات.

تسلمهما كريستينا مبلغ عشرين ألف كرونة كمنحة لتأثيث البيت من الشركات المحلية وعلى ذوقهما ، وراتب شهر لتسيير أمورهما ، وتعطيهما اسم طبيب العائلة واسم المستوصف

المسؤول عن صحتهم وعلاجهم، وتخبرهما أن يحتفظا بكافة الفواتير لأنه سيتم صرفها لاحقًا من الدولة.

حسن ورضاب في غاية السعادة والفرح بكل شيء وخاصة استقبال المولود الجديد.

ينتبه أن ياس وعباس ولدا صديق العمر زهير لم يكونا باستقباله، فيستفسر من رضاب، فتخبره أنهما مشغولان بالعمل والدراسة، وأنها لم تحب أن تكلفهما لأن المسؤولة أخذت على عاتقها كل شيء.

رضاب لا تريد إزعاجه بما حصل من ياس ابن زهير لتحافظ على علاقة الود والمحبة مع صديق العمر زهير، ولكي لا تحصل مشكلة بين زهير وولده المراهق ياس.

حسن منبهر بدولة السويد العظيمة وبنظافتها وبنظامها الدقيق كأنه ساعة سويسرية وباحترام الدولة السويدية للإنسان والزمان.

المسؤولة كريستينا تطلب من رضاب ضرورة مراجعة مركز الولادة وتعطيها العنوان، وتخبرها أنها حجزت لها موعدًا في اليوم التالي الساعة الثانية عشر ظهرًا.

حسن ورضاب مازالا في المجمع السكني للاجئين لأن الشقة لم يكتمل أثاثها.

- هذه صديقي الروسية سفيتا وتعني بالعربي "الضوء" أي اسمها منذ الساعة "ضوية"... ضوية ساعدتني في شراء هذه الحاجات التي تراها في الشقة لأنها تجيد التحدث بالسويدية وتعرف طرق المواصلات ومحلات الملابس والأثاث وهناك محلات لبيع حاجيات البيت قسم منها عربية أو تركية تبيع كل شيء يخطر على بالك... وهذه المسؤولة كريستينا وكذلك المسؤولة التي منحتني الإقامة وساعدت في سرعة وصولك كل شيء بيدها ولا يستطيع أحد أن يؤثر عليها... تصور حسن حتى الملك أو الملكة لا يستطيعان أن يؤثرا عليها ، المهم قناعتها بالموضوع ، فإن اقتنعت انتهى الموضوع، وإن لم تقتنع؛ لا تفيد هنا واسطة ولا توجد رشوة إطلاقًا... إن كان لكَ حق تأخذه بالقانون وبقناعة المسؤول... وإن لم يكن لكَ حق لا تحصل على شيء مهما حاولت... تصور حسن ستحصل على هوية شخصية فيها رقمك الشخصي ، هذا الرقم يوازي اسمك ، عندما يضرب على الكومبيوتر ؛ كل المعلومات التي تخصك تظهر على الشاشة فلا يسألونك ولا تسألهم وحدود مراجعتك الدوائر السويدية لا تتجاوز الاستعلامات بأي حال من الأحوال، لا ترى المدير ولا ترى الوزير ، هذا الموظف البسيط وهذه المعلومات المثبتة في الكومبيوتر هي كل شيء... صدقني يا حسن، إنها دولة منظمة مثلما قلت لكَ كأنها ساعة سويسرية.

حسن تعبان ومجهد ، ولكن مع هذا يتناولان وجبة العشاء مع صديقتهما سفيتا في مطعم المجمع.

يستحم حسن ، الحمام دافئ ومجهز بالأجهزة الكهربائية كافة والماء حلو الطعم والمذاق وما أسهل تنظيم درجة حرارته.

- هل لديكم ماء للشرب؟

- حسن اذكر الله ، السويد كل ماءها صالح للشرب حتى ماء البحيرات ، تصور الملك بجلال قدره يشرب ماء من الإسالة حاله حال الناس.

ينظر حسن من خلال الشباك فيشاهد النظافة وغابات الأشجار المنتشرة في كل مكان... ولكن لأنه متعب من السفر ، يخلد إلى النوم بعد أن يستأذن من رضاب وسفيتا.

تستأذن سفيتا ، وتلحق رضاب بحسن ويكاد الشوق يقتلها ، لا تعرف ماذا تفعل ، هل تغني لحسن أغاني "نجاة الصغيرة" التي تحفظها وتحبها ، أم تقص عليه الأيام الصعبة التي عاشتها لوحدها في السويد والتي كادت أن تقضي عليها... المهم الصباح رباح... وما أحلى الأيام القادمة.

حسن ينتظر رضاب ويعد الدقائق ، وإذا بها ترمي نفسها عليه في السرير وهي في كامل زينتها وعطرها المميز ، فيحضنها ويشمها ويقبلها.

- رضاب، ضاعت أيام من عمري، ومن واجبكِ أن تعوضيها لي... صدقيني أيتها الغالية كل ساعة من عمري ضاعت وأنتِ لستِ بقربي خسارة من العمر.

- حسن حياتي، عمري، عيوني... دير بالك على ولدنا سام... أنا اخترت هذا الاسم لولدنا فهو اسم عربي وأجنبي بنفس الوقت.

- خلاص، مادام أنتِ مقتنعة بهذا الاسم فأنا منذ الآن أبو سام وأنتِ أم سام... وليحيا سام ابن حسن ورضاب.

حسن يداعب رضاب ويحدثها عن عودتهم للأردن ويحكي لها ما حصل لهم بالتفصيل الممل...

- رضاب، أنا وعدت زهير بعد أن نستقر أن نتصل بالمهرب جهاد وننسِّق الأمور.

- دعنا أولاً نؤثث الشقة، وفلوس المنحة عندي سأسلمها لكَ حالاً فأنتَ رجل البيت وعليك أن تتحمل مسؤولياتك... كذلك ننتظر مجيء ولدنا سام... بعدها ننسق أمور زهير وعائلته... اتفقنا حسن؟

- نعم اتفقنا حبيبتي رضاب... لكن أرجو ألا تهتمي لموضوع الفلوس، فأنا معي كمية من النقود والباقي أمنته عند زهير يمكن أن يحوّله لنا في أي وقت نحتاجه، وهناك مبلغ جيد أودعته في البنك العربي في عمان للاحتياط... يعني مشكلة الفلوس محلولة.

- حسن ، كتّم على هذا الموضوع ، لأن صديقتي سفيتا عندما أعلمت المسؤولة الاقتصادية أنها تملك قليلاً من المال ؛ قطعت عنها المساعدة وقالت لها : اصرفي هذه الفلوس وبعدها أعطيكِ مساعدة... هكذا النظام هنا.

- يعني هل نكذب يا رضاب على الناس الذين ساعدونا وقبلوا لجوءنا واحترمونا.

- والله الدنيا هنا ماشية بهذا الشكل ، عندك فلوس زيادة ؛ يقولون لكَ تصرفها على نفسك فأنتَ أولى بها.

- أهلنا علمونا أن القرش الأبيض لليوم الأسود.

- اطمئن حبيبي ، هنا لا يوجد يوم أسود ، كل شيء محسوب ومكتوب ومخطَّط له ، مستقبلك ومستقبل أولادك مضمون بالحياة والعيش الرغيد والتعليم والصحة وكل شيء... وما يعطونه لكَ باليد اليمنى يأخذونه باليد اليسرى ، أي مثل ما يقول المثل الشعبي عندنا بالعراق (جوز المعدود بجراب المشدود)... كان أهلنا بالعراق يشقون لجمع المال وادخاره وعندما يكبرون ويمرضون يصرفون هذا المال على العلاج والدواء والطبيب... هنا كل شيء مضمون ، والدولة مسؤولة عن تعليمك وعلاجك ومعيشتك عيشة إنسانية كريمة... والراتب يكفي وفيه شيء زيادة خاصة إذا كنت لا تدخن ولا تتعاطى شرب الكحول لأن أسعارها هنا في السويد غالية

بسبب الضرائب... وطبعًا عليك أن تعرف أن الضرائب هنا شيء مقدس لا يحق لكائن من كان مخالفتها أو اللف والدوران عليها أو إعطاء معلومات كاذبة ، لأن حسابها بالقانون هنا عسير... إذا أردت أن تعيش مرتاحًا في السويد ما عليك إلا احترام القوانين وتنفيذها بدقة.

- المهم رضاب شبعت من النصائح والتعليمات... دعينا نشوف الدنيا ونمتّع أنظارنا بهذا الجمال الأخَّاذ وهذا الجو المنعش... يعني السويد عبارة عن غابة عظيمة طُردت منها الحيوانات واستغلها الإنسان لراحته وسعادته.

• • • •

يصلان برفقة سفيتا صديقتهم الروسية إلى المركز الصحي للحوامل في منطقة آلبي القريبة بواسطة مترو الأنفاق (التنل بانا) أي العربات التي تسير في الأنفاق تحت سطح الأرض.

- عجيب ، كل هذه الأنفاق محفورة في قلب الجبال ، يا له من عمل جبار ، والله هذه شعوب حية تستحق الحياة.

- رضاب لا تستغربي الأمور ، نحن العراقيون كنّا في العصر العباسي لدينا منظومة نقل ماء ومجاري متقدمة... ثم لا تنسى حضارة سومر وبابل وبناء الزقورات العملاقة والجنائن المعلقة ومسلة حمورابي واختراع الكتابة وصنع

الدولاب وتنظيم الري والزراعة... ثم لا تنسى حضارة الفراعنة ومعجزة بناء الأهرامات... المشكلة فينا رضاب، نحتاج إلى قيادة واعية حكيمة عادلة تخطط ولا تشخبط وتستنهض كل إمكانات البلاد والعباد وتعيد لنا أمجاد الماضي على الأقل أو شيئًا منها... رضاب، هذا الموضوع يدوخ وهذه سفيتا بس تهز رأسها لأنها لا تفهم ما نقول.

رضاب تنتظر موعدها في غرفة الانتظار... وفِي تمام الساعة الثانية عشر يُنادى اسمها؛ فتنهض... ترحب بها امرأة أنيقة تلبس صدرية ناصعة البيضاء، تصافح رضاب وتقول لها أنا الدكتورة ماري، تفضلي معي إلى غرفة الفحص... تتعرف عليها وعلى صحتها وتاريخ الأمراض المزمنة إن وُجدت، وهل تشكو من أوجاع أو مشاكل صحية.

رضاب ترتاح لهذه المناقشة المفيدة بينها وبين الدكتورة المختصة، فرغم أناقتها وجمالها الأخاذ ورقتها فهي إنسانة بسيطة ليس عندها فرَّاش ولا مساعد ولا ممرض، كل شيء تقوم به بنفسها... بعد التحاليل والفحوصات والسونار؛ تخبرها الطبيبة المختصة أن وضع الجنين في بطنها غير طبيعي، ومن المحتمل أن تكون ولادتها بعملية قيصرية، وتمنحها فرصة لمدة أسبوع قبل معاودة الفحوصات، وتنصحها بالمشي يوميًا أكثر من ساعتين على شكل مراحل ودون إجهاد عالٍ، كما تنصحها بضرورة التغذية الجيدة، وتعطيها بعض الفيتامينات.

- دكتورة، من أين استلم هذه الفيتامينات؟

- من أي صيدلية في عموم السويد ، ستجدين اسمك ودواءك محجوزًا ، كل ما عليكِ أن تعطي للصيدلي المسؤول رقمك الشخصي وهو يقوم بالواجب حسب الأصول.

- وأين أجد رقمي الشخصي؟

- موجود في بطاقتك الشخصية، وعليكِ أن تحفظيه عن ظهر قلب ، فهو عبارة عن تاريخ ميلادك باليوم والشهر والسنة مع أربعة أرقام سرية أنتِ فقط تعرفينها... انتهى وقتك ، وهذا موعدكِ في الأسبوع القادم في نفس الوقت، وسنحضر لكِ مترجمًا يساعدكِ، لا تخافي سنساعدك وستلدين بموعدك.

ثم توجه حديثها إلى حسن:

- وأنت زوجها وعليك مساعدتها ورفع معنوياتها... مع السلامة والى اللقاء في الأسبوع القادم.

تستلم رضاب الفيتامينات من أقرب صيدلية بمجرد إعطاء رقمها الشخصي بكل يسر وسهولة...

يعودون بمترو الأنفاق، المسافة قصيرة بين منطقة آلبي وشارل هولمن، لا تتجاوز بضع دقائق، يندهش حسن من دقة مواعيد القطارات ، فالقطار يصل بالضبط في الدقيقة المكتوبة على اللوحة الإلكترونية في المحطة.

تقول سفيتا لهما:

- أرى أنكما منبهرين بمترو الأنفاق هنا في ستوكهولم ، لو رأيتما مترو الأنفاق في موسكو لاندهشتما أكثر ، سأريكما تسجيل فيديو عن بعض محطات موسكو وعظمة وحجم البناء ، كل محطة في موسكو عبارة عن متحف عظيم... هنا في السويد حتى بناياتها بسيطة ولكنها قوية ومحكمة ، والمهم عندهم أن الجميع لديهم سكن ويتمتعون بالخدمات الأساسية.

- سفيتا نحن جوعانين ونريد مطعمًا عراقيًا قريبًا لنأكل اليوم كباب عراقي...ممكن؟

- نعم حسن ممكن ، يوجد أكثر من مطعم في فوربي كورد المحطة القادمة ، أو في شارل هولمن ، ولكن الأفضل في فوربي كورد... تهيئا للنزول.

يتناولون الكباب العراقي وخبز التنور الحار ، ويتذكر حسن بغداد الحبيبة ومطاعمها وخبز أمه المميز في الإسكندرية.

يعودان لشقتهما وسفيتا معهما والتي ترجوهما أن يتكلما باللغة الإنكليزية التي تفهمها إلى أن يتعلما اللغة السويدية مثلها لأنهما إذا استمرا هكذا يتكلمان باللغة العربية فلن يتعلما السويدية...

- ثم ما ذنبي أنا أرافقكما كل الوقت ولا أفهم ماذا تقولان.

- شوية شوية نتعلم المهم الله يسهل ولادتي وكل شيء يهون.

سفيتا تطمئن رضاب:

- لا تخافي، هنا الطب متقدم جدًا والعناية مركزة، والدكتورة لو تعرف أن هناك نسبة خطر ١٪ عليكِ لما تركتكِ تغادرين المستوصف، ولنقلتكِ فورًا بالإسعاف إلى المستشفى لتكوني تحت المراقبة... النظام الطبي هنا صارم ودقيق والطبيب يتحمل مسؤولية المريض كاملةً، ثم أن العملية القيصرية هنا سهلة وبسيطة ولا يلجأون لها إلا في حالات خاصة.

ترتاح رضاب وتطمئن نوعًا ما لكلام سفيتا، وتشد على يدها.

- رضاب ارتاحي أنتِ اليوم وأنا وسفيتا نذهب إلى محلات بيع الأثاث لنشتري الأثاث المطلوب على ذوقنا.
- حسن هنا في ستوكهولم يوجد شركة كبيرة جدًا اسمها الاكيا أسعارها بسيطة ولكن أثاثها ليس متينًا، وتوجد شركة أخرى اسمها الميو أثاثها جميل ومتين ولكن أغلى
- إذن نذهب إلى شركة الميو.

حسن ينبهر بالموديلات وجمالها ودقة الصناعة وجمال العرض والتنسيق.. يشترون نصف طقم كراسي راحة (قنفات) وميز طعام وأربعة كراسي وغرفة نوم جميلة كاملة وسجادتين وسريرًا للطفل وسريرًا للضيوف...

- سفيتا، هذا السرير لكِ عندما تنامين عندنا، فاختاريه أنتِ.

مجموع الحساب بعد التخفيض اثنا عشر ألف كرونة سويدية... الموظف يخبرهم أن كامل الأثاث سيكون في شقتهم بعد يومين.

يعودان ويبشران رضاب بما أنجزاه، ويخبرانها أنهما في الغد سيذهبان إلى شركة الاكيا القريبة لشراء حاجيات المطبخ والأفرشة المهمة.

عند المساء يخرجون للفسحة قرب بحيرة فتية القريبة منهم... يستمتعون بمشاهدة المناطق الخضراء الواسعة والأشجار الباسقة ونظافة ماء البحيرة وأعداد طيور الخضيري المنتشرة على حافة البحيرة والتي تتجول بين الناس آمنة مطمئنة.

- يا ناس يا عالم، هذه الحضارة وهؤلاء الناس المتحضرون... نحن فقط نقرأ في الكتب حضارة السومريين ، حضارة البابليين، حضارة الفراعنة... لكن واقع الحال يقول أن هناك تخلفًا في كثير من المجالات، إذن أين ذهبت هذه الحضارات العملاقة، ولماذا لا نستطيع أن نعيدها أو نعيد بعضها على الأقل... العلم يقول إن الجينات الوراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، الظاهر هذه الجينات كمنت وتحتاج لمن يفّعلها ويطلقها... نعم نحتاج استقرارًا سياسيًا واستقرارًا اقتصاديًا لسنين لغرض إعادة بناء الإنسان لمواكبة الحضارة وهذا التقدم الهائل في جميع المجالات.

(١٣)

صباح كل يوم تخرج سفيتا ورضاب إلى الغابة القريبة والحدائق الغناء لمدة ساعة زمن يتفرجان على أنواع الطيور والأرانب وبعض الغزلان التي ترعى بأمان، وكلها حيوانات برية لا يملكها أحد ولكنها ملك الجميع ولا يحق لكائن من كان أن يصيدها أو يسبِّب أي أذى لها، بل على العكس الناس تحنو عليها وأحيانًا تقدِّم لها الطعام.

رضاب مندهشة مما ترى، مناظر جميلة لم تألفها من قبل، طيور وحيوانات برية الناس تحبها وترعاها ولا تفكر في صيدها أو ذبحها وأكلها كما هو الحال في بلادنا العربية مثلاً... إذن كيف نحن أصل الحضارة ؟!... والله سؤال محير من يجيبني عليه.

تتعبان من المشي فتجلسان على مصطبة جميلة ونظيفة بجانبها زُرعت أنواع الورود الزاهية، ولكن المشكلة حتى ورد الروز بدون عطر نفاذ... تلاحظ سلال النفايات المصممة بجمالية والمدامة بالأكياس بحيث لا يمكن أن تشم رائحة النفايات لأن هذه الأكياس تُبدل قبل أن تمتلئ وباستمرار... تنظر رضاب إلى الأرض الواسعة على مَّد النظر والمطرزة بالورد الأصفر والأبيض البري الجميل وبكثافة...

في هذه الأثناء ورضاب تتأمل؛ تحدث ضوضاء وحركة غير طبيعية في جانب الغابة القريب... وبعد لحظات يخرج حيوان كبير جدًا كأنه جمل هائج ويمر من أمامهما، فتجفل رضاب وسفيتا خوفًا وترتمي رضاب في حضن سفيتا، لكنها تطمئنها:

- لا تخافي رضاب، إنه حيوان الأيل الذي يشبه إلى حد بعيد الزرافة في حجمه وشكله، إنه حيوان مسالم لا يؤذي أحدًا.

تعود رضاب للتأمل بعد أن تهدأ وتطمئن على طفلها من خلال تلمس بطنها... وتقول:

- لا تخف يا بُني، في هذه البلاد حتى الحيوانات البرية مسالمة.
- سفيتا...
- نعم رضاب.
- يقولون إن غابات روسيا مملوءة با الدببة الوحشية...
- هذا صحيح يا رضاب، لكنها لا تؤذي من لا يؤذيها، وبشكل عام يجب تجنبها لأنها حيوانات كاسرة، عندما تجوع تهاجم فرائسها.

رضاب تتأمل، هناك كثير من الأفكار تدور في رأسها... تكلّم نفسها: لابد أن أناقش هذا الموضوع الحيوي مع حسن لعلنا نصل إلى نتيجة، لا أستطيع أن أناقش سفيتا فيه بسبب اللغة وعمق الموضوع... إذن لنعود إلى البيت وأناقش حسن على رواقة وتركيز.

حسن ورضاب في البلكونة يشربان الشاي العراقي المهيل (فيه حبة هال) ليعطِه طعمًا طيبًا ورائحة زكية.

- حسن...

- يا روح حسن.

- أحيانًا أتأمل أفكارًا أحسها غريبة ولكن من صميم حياتنا ، وأحب أن أناقشها معكَ لأزداد معرفةً وفهمًا... فهل لديكَ رغبة؟

- بكل ممنونية... ولكن ماذا تريدين أن تفهمي؟

- قلت لكَ إن هناك أفكارًا كثيرة تدور في رأسي أحيانًا تقلقني وتسهدني ، وكثير منها لا أجد لها جوابًا عندي ، فأرجو أن توضح لي الأمور.

- رضاب حبيبتي، اسألي وأنا أجيب.

- طيب حسن... الإنسان يقضي العمر مهمومًا يجري جري الوحوش وغير رزقه ما يحوش ؛ كما يقول المثل... أو كما يقول الإمام الشافعي :

(أموالنا لذوي الميراث نجمعها وبيوتنا لخراب الدهر نبنيها)

فما بالنا مهمومين متعبين... لنأخذ الحياة بالراحة والهدوء والسكينة، حالنا حال السويديين.

- وهل تعتقدين أن السويديين ليس عندهم هموم ؟!... لا ، بل عندهم هموم ولكن من نوع آخر... صحيح لا يفكرون بجمع الفلوس مثل العراقيين لأن حياتهم ومستقبلهم مضمون من قبل الدولة، ولكن مع هذا لديهم همومهم ومتاعبهم... اصبري قليلاً وعندما تسنح لكِ الفرصة بالاندماج معهم وفهم لغتهم وعاداتهم وأفكارهم ستجدين حتمًا أنهم لهم معاناتهم من مشاكل الحياة ، ولو بالتأكيد أنها أقل بكثير من مشاكل العراقيين المعقدة والتي تزداد تعقيدًا مع الوقت، ولكن هناك نوع من المعاناة... وسأشرح لكِ شيئًا من تأملاتي... فأنا أيضًا مثلك هناك أفكار كثيرة تدور في راسي سأوضح لكِ شيئًا منها، فلربما نحن نشترك في بعضها :

شوفي ، أجدادنا السومريون دوروا القلم واخترعوا الدولاب ليدور ، وصنعوا الناعور الدوار ، وكانت عندهم رؤية وأفكار تدور في رؤوسهم فأسسوا الحضارة الإنسانية للبشرية وطوروها ، فالماكينة الصناعية تدور والمولد يدور ليولد الطاقة... وفِي الحقيقة يا رضاب كل شيء في الكون يدور ، فالأرض تدور والكواكب تدور والأقمار والشموس تدور ، وحتى الأفكار تدور في الرأس ، ونحن أيضًا ندور ، حتى عقلك يدور حول عقلك... ولكي نكسر الدائرة التي يدور فيها عقلك وجسمك؛ نحتاج أن نستريح بعض الوقت عقليًا ونفسيًا بالتأمل، ونسأل عقلنا لماذا كل شيء يدور ؟!

الحياة العصرية المعقدة رغم التطور التكنولوجي أوصلتنا كحالة ناعور يدور حول نفسه مرغمًا مثل ما يقول المثل العراقي (يترس ماء ويبدي)، وكذلك عقولنا لم تختر الدوران حول نفسها لكنها مرغمة أن تدور حول نفسها لتفهم الأشياء لأن العقل لابد أن يعرف غيره ليعرف قدراته، وعلينا أن نفكر في أنفسنا كما قال سقراط (اعرف نفسك بنفسك).

- لماذا كل هذا الدوران وكل هذا القلق وكل هذا الجهد؟

- الغني يدور لمزيد من المال، والعالم يدور لمزيد من العلم... علينا أن نمنح أنفسنا وقتًا كافيًا للتأمل، للهدوء للسكينة، لنتذوق الموسيقى ونستطعم الطعام ونعيش الحب والسعادة والأمل... ونتأمل ما الذي يجري في داخلنا ؟

- ولماذا تدور عقولنا ؟...ولماذا تسافر أفكارنا ؟... ولماذا هناك من يحبنا ؟ وهناك من يكرهنا ؟... ولماذا يتمكن بعض القادة من تسخير ملايين الناس لتبني أفكاره والموت من أجلها ؟!

- لنصحِّح مسارات أفكارنا؛ علينا أن نتأمل كيف تسافر أفكارنا مئات الكيلومترات لزيارة عزيز علينا، أو لبيت الصبا والشباب في الحلفاية ومسعيدة وقلعة صالح وسوق الشيوخ والمجر وغيرها... وصدق أبو تمام إذ قال :

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِن الهَوى ما الحُبُّ إلاّ للحَبيبِ الأوَّلِ
كَمْ مَنزِلٍ في الأرضِ يألفُهُ الفَتى وحَنينُهُ أبداً لأوَّلِ مَنزِلِ

علينا أن نتأمل كيف تشعر أن ابنك قادم لزيارتك الساعة ويتحقق شعورك، كيف تشعر الأم أن وليدها الرضيع النائم بجانبها سيسقط من السرير وتفز مرعوبة وتجد فعلاً ان ابنها على حافة السقوط...

علينا أن نتأمل ما قام به مجموعة من العلماء حين أخذوا جراء كلبة لمسافات بعيده عن أمهم، وعندما وخزوا أحد الجراء رجفت الأم ونزلت من عينيها الدموع، وعندما ذبحوا أحد جرائها؛ ارتعدت وصرخت وهاجمت من كان يراقبها.

علينا أن نتأمل كيف الحمام الزاجل ينقل الرسائل...

علينا أن نتأمل لماذا نموت، ولماذا الموت حق، ومن أين جاء هذا الحق، وإلى أين نفوسنا تذهب، وهل حقًا تذهب إلى العالم الآخر لتعيش فيه خالدة بدون أوجاع وأمراض، نظيفة، عفيفة، طاهرة، ليس فيها غش ولا خداع، تعيش كما تعيش الملائكة آمنة مطمئنة دون قلق وخوف في عالم الأنوار؛ أي في جنة الخُلد.

علينا أن نتأمل لماذا الذي يملك مزيدًا من المال يسعى لجمع المزيد والعمر محدود ؟!... وعندما كنا نعيش في وطننا العراق كنّا نجهد أنفسنا ونقسو عليها للحصول على المال، وهذا الجهد العالي يسبب لنا متاعب صحية فندفع هذا المال للأطباء...

علينا أن نتأمل لنعيد بعض الحسابات ونصحح بعض المسارات... ونسأل أنفسنا : لماذا تدور عقولنا حول العراق وما يجري في العراق ؟! ولماذا تسافر أفكارنا كل يوم للعراق ، لماذا نشاركهم المأساة ؟! ولماذا نشعر بمعاناتهم وبالحر الشديد رغم بعدنا عنهم آلاف الأميال ؟! لماذا نهتف معهم ونتفاعل معهم؟!...

علينا أن نتأمل لنفهم ، لنحل اللغز المحير... إننا في حيرة من أمرنا لفك هذه الألغاز ، لكن الحيرة بداية الهداية... وإننا في قلق ، والقلق بداية الاطمئنان على النفس... ولأن التساؤل يعني البحث عن الجواب ، والشك بداية المعرفة ؛ لتعرف نفسك بنفسك في ساعة تأمل ، كما يفعل الناس في اليابان والصين عندما يمارسون رياضة اليوجا لغرض التأمل ، إنها رياضة الروح والعقل والجسد ، وتطوير الفكر وتقوية الرؤية وتعميقها وسبر أسرار الكون بالتأمل.

العلماء كانوا يعتقدون أن الحيوان بلا إحساس ، وأنه ينظر للآخرين لكنه لا ينظر إلى نفسه ، واليوم باستخدام الأجهزة الإلكترونية المتطورة يثبتون أن للنبات إحساسًا ، فهو يحس بالعصافير والفراشات ، ويتأثر ويتألم إذا قُطع غصن منه ، وينتعش بالحنان والموسيقى...

إنها أفكار كثيرة وكبيرة تدور في عقل الإنسان... الإنسان مهووس بالمعرفة، يريد أن يفهم ماهية الكون والحياة، يريد أن يتأكد أن هناك عقلاً عظيمًا وحكمة راقية تنظّم هذه الدنيا وتسيِّر أمورها، وأن عقولنا جزء بسيط جدًا من هذا العقل الأعظم... فأن كان العقل الإنساني وما يدور فيه من أفكار مازال لغزًا مازلنا نحاول أن نفهمه لمحدودية إمكاناتنا، فكيف نفهم العقل الأعظم ؟!...

علينا أن نبحث في داخلنا بالتأمل في أفكارنا وما يدور حولنا وعلينا أن نتأمل نفوسنا وأسباب خلافاتنا ومستقبل أولادنا...

إن شاء الله فهمتِ هذه الفلسفة؟...

- ويعني ليش أنا عندك ما أفتهم ؟... طبعًا افتهمت، وهذا جزء لمعلوماتك مما كان يدور في عقلي، وأنت لم تأتي بشيء جديد... وأنا أزعل يا حسن إذا أنتَ حبيبي تستهين بقدراتي وذكائي... ولمعلوماتك، أنا أحبك يعني أحب كل ما تحب وأرتاح لكل ما ترتاح له، وأفتخر بكَ وبقدراتك وتحليلاتك، فأرجوك لا تبخس حقوقي وتنظر لي بعين صغيرة.

- عفوًا رضاب، أنا فقط أحب معاكستكَ حبيبتي، فأنا والله أمزح معكِ، أرجو المعذرة وسامحيني.

- هذا مزاح بايخ... حسن، أنا استفدت منكَ وارتاحَ عقلي لطروحاتكَ المنطقية والواقعية رغم أن قسمًا منها فلسفية

ولكن تسلم يا حبيبي، أرحتني وهدأت كثيرًا من الأفكار في عقلي، فألف ألف شكر لك يا حلو الحديث، وأنا ممنونة منك ودايم والله يوسع مداركك ويزيد معلوماتك ورحم الله امرئ أفاد واستفاد، لأن الإنسان بأصغريه؛ لسانه وجنانه.

(١٤)

تذهب رضاب يوم الاثنين الساعة الثانية عشر ظهرًا برفقة سفيتا وحسن إلى المستوصف في منطقة آلبي... وفِي الموعد المحدد تنادي الدكتورة المختصة اسم رضاب... تنهض ، فتصافحها الدكتورة وتطلب منها مرافقتها لغرفة الفحص ، تكشف عليها وتأخذ لها تحاليل كاملة وتسألها :

- هل التزمتِ بالتعليمات فيما يخص المشي ساعتان يوميًا ؛ ساعة في الصباح وساعة في المساء، كذلك الالتزام بالتغذية؟

- نعم دكتورة بالدقة المطلوبة.

تفحصها بجهاز السونار لنرى وضعية الطفل داخل الرحم.

- عال ، عال... كل شيء جيد ، ووضع واتجاه الطفل صحيح... والآن لأسمعك دقات قلب ابنكَ... تسمعين رضاب؟

- نعم اسمع دكتورة.

- ابنكِ بصحة جيدة... وعليك المواظبة على المشي والاهتمام بالغذاء... أصبح موعد ولادتك قريبًا جدًا ، ونحن اتخذنا كل الإجراءات اللازمة ، وسيكون زوجك بقربك ، فاطمئني... والآن مع السلامة، وإلى لقاء آخر يوم الاثنين القادم في نفس الموعد... هذا في حالة لم تضعي مولودك قبل هذا الموعد.

سفيتا أعجبها الكباب العراقي في مطعم نرجس في فور بيري، فتدعوهما على غداء عراقي بهذه المناسبة.

حسن يرد عليها:

- أيتها العزيزة سفيتا، أنا صاحب الدعوة أرجوكِ، لأن سام سيشِّرف دون عملية قيصرية... وأرجوكِ مزيدًا من العناية برضاب هذه الأيام لأنها أيام حرجة.
- اطمئن، فرضاب أصبحت أختي العزيزة وأنتما أهلي وأنا سعيدة بمعرفتكما وبصداقتكما، فلقد خففتما عليَّ آلام الغربة وفراق زوجي المظلوم سريوجا.
- على فكرة سفيتا، هل تستطيعين مقابلة زوجك؟
- طبعًا، كل رأس شهر أذهب إلى السجن المركزي وأقضي معه ساعات طويلة... وعندما تمر سنه عليه وهو حسن السيرة والسلوك وملتزم بالأنظمة والقوانين سيسمحون له بزيارتي... كذلك سيخففون من مدة محكوميته.
- ربنا يكون بعونك، ونحن هنا أخوتك ورفاقكِ وأنتِ واحدة منا... لكن عليكِ أن تعلمينا اللغة الروسية، ونحن سنعلمكِ اللغة العربية... اتفقنا سفيتا؟

فترد عليه بالروسية:

- (سكلا سنا)... يعني: اتفقنا.

تتدخل رضاب في الحديث:

- والله أنتَ بطران يا حسن... يا روسي، يا عربي... الآن دعنا نتعلم السويدية ونفتهم ما يدور حوالينا... أشو وأحدنا مثل الأطرش بالزفة... لولا كم كلمة الإنكليزي التي تعلمناها في المدرسة كان حكايتنا حكاية... أنتَ أحسن مني لأن دراستك في الكلية كانت بالإنكليزي، نحن بالمعهد الله لا يعطيهم العافية لم يدرسونا شيئًا مفيدًا بالإنكليزي، غير ضرب الولد الكلبَ... وهنا بالسويد الذي يضرب الكلبَ يحاسبه القانون، ويجوز ينسجن.

- والله هنا الكلاب مدللة ولها حظوظ... بالعراق الإنسان تعبان وهنا الكلاب مرتاحة، هذا أبو عبدالله كان لاجئ معانا بالمجمع رجل كبير، يعتنون به وحتى يسبحونه، يقول: أنا أقبل أعيش كلب بالسويد ولا آدمي بالعراق، بعد الذي شفناه من ظلم وقهر ونهب وسلب وسرقة أموال الشعب، وهذه الأحزاب التي تلعب لعب بمقدرات الدولة باسم الدين.

- لخاطر الله أبعدنا عن السياسة وبلاويها.

- أنتِ أمورك محلولة... ابنك سام سيكبر ويدخل مدرسة وراح يعلمك لغة سويدية.

- موت يا حمار لما يجيئك الربيع... يعني سام صار وكبر ودخل مدرسة وراح يعلمني... فيلم هندي هذا يا حسن... ضروري نشد حيلنا ونعتمد على أنفسنا ونتعلم... يمعود هناك ناس يعرفون عدة لغات، والله في المجمع شفت واحد عراقي

يتكلم إنكليزي وسويدي وروسي وألماني بطلاقة ، يشتغل مترجم في دائرة الهجرة.

- رضاب ما تصيرين مثل هذا.

- والله أنتَ صير مثله... أنا دايخة بهذا الحمل وبموعد ولادتي وتربية سام... اشو أنتَ لا شغلة ولا مشغلة ولا قراءة ولا كتابة... يحتاج يا حسن تنظم وقتك (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

- رجعنا للفلسفة رضاب.

- والله هذه حقيقة... أنا أريدكَ حبيبي أن تتكلم سويدي بطلاقة خلال ستة شهور ، وأنت بطل وذكي وتقدر تدبرها ، صدقني.

• • • •

حسن ورضاب في البلكونة يتجاذبان أطراف الحديث ، وتأتي سفيتا لزيارتهما كالعادة لمساعدة رضاب في شؤون البيت...

- سفيتا حبابة ، اعملي لنا شاي ، الله يخليكِ ويحل كل مشاكلك.

- حاضر حسن ، وبكل ممنونية.

يشربون الشاي... ثم تخرج رضاب وسفيتا للنزهة على ضفاف بحيرة فتية القريبة منهم... تنبهر رضاب بالمساحات الخضراء الواسعة وبغابات الأشجار التي تطوق البحيرة وهذه المساحات الجميلة الزاهية بورودها وحسن تنظيمها ونظافتها وبأشجار

التفاح والكرز والزعرور والعرموط والإجاص... وأنواع من الفطر في ارض الغابة وروعة الماء ونقائه... وتنظر إلى أسراب الطيور وخاصة طيور الخضيري الملونة تتجول في البحيرة وخارج البحيرة بأمان.

- أتعلمين يا رضاب أن في روسيا نفس هذه الأشجار والغابات والبحيرات ونفس هذه الطيور التي تهاجر في الشتاء إلى بلدكم.

- نعم أعرف ذلك... تهاجر إلى بلدنا وخاصة إلى مناطق الأهوار الدافئة ، ليصيدها العراقيون هناك ويأكلونها... مسكينة عقلها على قدها ولو كانت تفتهم لهاجرت إلى أماكن آمنة، ولكن مثل ما يقول العراقيون عقل بشة (عقل طيرة)... أتعلمين يا سفيتا كان في بلدنا ثلاثون مليون نخلة تعطينا أنواع التمور الراقية، لم يبقَ منها إلا أقل من نصفها بسبب الإهمال والحروب.

تشاهد رضاب تجمعًا للطيور فيعجبها ملاحقتها لتمزح معها... فتجري فجأة باتجاه الطيور التي تفر إلى الماء بسرعة، ولكن رضاب تعثر بحفرة صغيرة يغطيها الثيل فتقع على الأرض... تسرع سفيتا لمساعدتها... ولكن رضاب تتألم وتحس بتقلصات شديدة في بطنها وبنوع من النزيف يبلل ملابسها الداخلية ويتعبها... تستنجد بسفيتا التي تسارع بطلب سيارة الإسعاف

التي تصل خلال دقائق معدودة، ويتم نقل رضاب على الفور إلى سيارة الإسعاف وتجرى لها الإسعافات الأولية من قبل الممرضات ومعهن سفيتا.. تنطلق سيارة الإسعاف إلى مستشفى هودنكا القريب منهم وهي تصيح بزمارتها المميزة وضوئها الأزرق المميز دلالة على حالة طوارئ حرجة ليسمح لها الجميع بفتح الطريق وتسهيل مرورها.

في المستشفى بعد الفحص تقرر الدكتورة أنها حالة ولادة مستعجلة.

يدخلون رضاب صالة الولادة، ويسرع الأطباء والممرضات، وتحدث حركة غير عادية في ممر صالة الولادة.

سفيتا تخاف، وتتذكر ضرورة الاتصال بحسن...

- نعم سفيتا...

- حسن، أنا ورضاب في مستشفى هودنكا، ورضاب في صالة الولادة الآن ، جاءها المخاض... سجل العنوان : مستشفى هودنكا الطابق السابع مصعدR2 قاطع R76... تأخذ تاكسي فورًا وتدخل من الباب الرئيسي وفِي نهاية الممر تجد المصعد وسأكون أنا بانتظارك في الطابق السابع قرب المصعد ، أرجوك أسرع لأن رضاب بحاجة إليك... واطمئن... الأمور هادئة وكل شيء تمام.

يصل حسن على وجه السرعة، يسمحون له بالدخول إلى صالة العمليات... تمسك رضاب يديه بقوة وهي تصيح: يا الله، يا الله حتى ينزل المولود... ولد كامل الخلقة وبصحة جيدة.

يعطونها العلاج اللازم... وترى وليدها... وتبتسم رغم الآلام... يقبِّلها حسن : مبروك رضاب... فتشد على يديه وتنظر إلى سفيتا نظرة كلها حب وعرفان.

يرطبون شفاهها بشاش مبلل بقليل من الماء ، وعن طريق "الكانولة" التي ثُبتت بيدها يحقنونها بإبرة مهدئة للآلام، فتنام.

يخرج حسن وسفيتا إلى الصالة ، يتطلعان إلى سام في صالة الأطفال من خلال الزجاج.

- الحمد لله والشكر ربي...
تصلي سفيتا بإشارات برسم الصليب ، وتقص على حسن ما حدث لرضاب، وأن الله ساعدها كثيرًا... فيرد عليها: الله ستر.

حسن يخلط إنكليزي وعربي وسفيتا تخلط إنكليزي وسويدي وروسي... (اسكت وخليها صايرة ملحمة، والرجَّال الذي يفهم بالنتيجة).

يحاول حسن الاتصال بأهله ليزف لهم البُشرى ، لكن الشبكة بالعراق ضعيفة... وبعد عدة محاولات يتصل بصديق العمر زهير في عمان ويخبره بالنبأ السعيد ويطلب منه الاتصال بأبويه ليفرحا معهم.

بعد ساعتين يعود حسن وسفيتا لغرفة رضاب فيجدانها جالسة تشرب عصير البرتقال ، وعلى المنضدة كوب حليب وطبق شوربة وقطعة حلويات... تخبره الممرضة باحتمالية مغادرة رضاب المستشفى في الغد ، وأن بإمكانه هو وسفيتا الذهاب للبيت للراحة ، لأن حالة رضاب مستقرة ، وأنهم يقومون بالواجب على أكمل وجه.

يرفضان مغادرة المستشفى ، ولأن المبيت في غرفة رضاب ممنوع ؛ يقرران النوم على الكراسي في الصالة الكبرى في الطابق الخامس... كبيرة الممرضات تسمح لسفيتا بالبقاء في الغرفة ، لكن يجب على حسن المغادرة عند الساعة التاسعة ليلاً.

- حل معقول، أنتِ مع رضاب، وأنا أذهب للصالة، وصباحًا نلتقي... والآن لننزل إلى الصالة لنأكل شيئًا ونشرب الشاي.

- لا تفكر بالشاي والقهوة والعصائر ، فكل شيء متوفر في غرفة الانتظار وفِي مطعم المرضى وبدون ثمن يُذكر.

في الساعة الحادية عشر صباحًا تأتي الدكتورة وتجري الفحوصات والتحاليل لرضاب، وطبيبة الأطفال تفحص سام وتثبت وزنه وتفحص فمه وأذنيه وعينيه وتمسك يديه وتحرك أصابعه، ثم تشخط بالقلم على باطن قدمه وتشاهد ردة فعله... وتقول:

- كل شيء تمام، تستطيعين مغادرة المستشفى، ولكن عليكِ مراجعة طبيب العائلة في المستوصف عند الحاجة... هذه مجموعة فيتامينات... مبروك، ومع السلامة.

الممرضة تعطيهم بطاقة تاكسي يوصلهم إلى البيت...

وهكذا يعودون إلى شقتهم وسفيتا برفقتهم، والتي تذهب إلى الصيدلية لإحضار الدواء وبعض المستلزمات الضرورية، وتشتري من الأسواق المركزية بعض حاجيات المنزل الأساسية من فاكهة وخضار وحليب ولبن وبعض اللحوم الطازجة وقليل من الحلويات.

حسن في غاية الفرح والسعادة، يساعد سفيتا في تنظيف الشقة وغسل الأطباق... وسفيتا تعمل لرضاب شوربة دجاج بالخضار وعشاء، وتذهب للمحل المجاور فتشتري باقة ورد مع علبة حلويات ماكنتوش... يحاول حسن دفع ثمن الفاتورة، ولكن سفيتا تقول له:

- حسن، إنها زوجتكَ، ولكنها أختي، سكلاسنا،؟

فيرد عليها بالعربي:

- اتفقنا.

- نعم حسن، أنتَ الآن أخي.

في اليوم التالي يتصل حسن بأبيه ويبشره أن الله رزقهم بولد جميل أسمياه سام لسهولة نطق الاسم في هذه البلاد ، وأنه مشتاق إلى رؤيتهم ، وحال الحصول على موافقات سيأتي لزيارتهم...

- ضروري بابا كل أسبوع تذهب لزيارة بيتنا في السيدية ، وأحسن شيء إما أن تسكن أختي وزوجها في البيت ، أو تضع حارسًا.

- حسن ، حاليًا أختك الكبيرة مع زوجها يعيشون في البيت ، فاطمئن يا ولدي ، كل شيء تمام رغم المظاهر المسلحة في البلاد وكثرة نقاط التفتيش والحواجز الكونكريتية المزعجة... تصور يا ولدي من الإسكندرية إلى السيدية المسافة أربعون كيلو متر أقطعها بالسيارة في ثلاث ساعات بسبب نقاط التفتيش والحواجز... أما السيدية بمدخل واحد وتحقيق مع الذي لا يملك بطاقة سكن... ويقولون : ديمقراطية وحرية... وداعتك ابني صدقني كلها شعارات فارغة وكاذبة... والمشكلة الناس هذه الأيام شغلها الشاغل الزيارات لأضرحة الأئمة والمزارات ، آلاف البشر في مسيرات مشيًا على الأقدام إلى كربلاء من كل محافظات العراق ، تصور مسيرات مليونية، أصبح هذا شغل الناس الشاغل... ابني الله كريم يفرجها ربك إنه على كل شيء قدير... المهم اهتموا بأنفسكم... قلوبنا عندكم.

يتصل حسن بصديق العمر زهير مستفسرًا عن أحوالهم... فيخبره زهير أنهم قرروا العودة إلى بغداد، لأنه طال المقام بهم في عمان...

- وأنتم أخباركم انقطعت عنا.

- عمي أبو ياس، كنّا مشغولين بمعاملات الإقامة وبولادة رضاب. وأبشرك صار عندنا ولد اسمه سام.

- الف مبروك... فرحتني يا حسن... حاول أن تديم الاتصال معي... أنا بعد يومين سأكون في بغداد.

• • • •

يعود زهير وعائلته إلى بيتهم في السيدية ويتفاجأ بسرقة كافة محتويات بيتهم ما عدا طقم القنفات الثقيل ومنضدة الطعام الكبيرة وبدون كراسي... والبيت فارغ تمامًا...

تصرخ أم ياس وتبكي وتلطم الخدود...ويتألم زهير ويصاب بمغص حاد وبآلام في الصدر وبصداع حاد.

جارهم الإنسان الطيب أبو كريم:

- لا تبتئس يا أبا ياس، كلنا في الهوى سوى، كلنا نُهبت بيوتنا ومحلاتنا، يا رجل المهم صحتك وسلامة العائلة، الفلوس تتعوض يا رجل.

يوم السبت زهير صحته تتحسن فيذهب للشارع العام ليرى محله، فيجده هو الآخر تعرض للسرقة وحتى الخزنة (القاصة) مرفوعة رغم أن وزنها أكثر من طن... فيسقط الرجل مغشيًا عليه، ويتم نقله إلى مستشفى اليرموك القريب للطوارئ من قبل المعارف والجيران...

الطوارئ مزدحمة جدًا... أبو كريم جارهم يدفع بعض النقود إلى أحد الممرضين فيجري لزهير بعض الإسعافات الأولية، ويقول لهم إن ضغط الدم مرتفع ويجب أن يفحصه الطبيب ليعطيه العلاج اللازم.

يعطيه الدكتور روشتة كتب فيها له براستيمول (الفدون ١٠٠ملغم) مع حبة تينورمين ٥٠ ملغم وحبوب مدررة واحدة فقط في اليوم لتخفيض الضغط...

يعودون إلى البيت...

زهير متعب ولا يقوى على شيء ولا يشتهي الطعام، يشعر أنه خائر القوى، ولكنه يتحامل على نفسه وبمساعدة أم ياس زوجته؛ يذهب إلى حديقة البيت ليتأكد من وجود سبائك الذهب التي دفنها وعلمها قبل السفر...

- الحمد لله كلها موجودة، ولكنها لا تشكل أقل من ربع ما كنت أملك، ومع هذا الحمد لله لدينا بعض المال ولدينا بيتنا ملكنا... لم يعد أمامنا خيار سوى الهجرة لنحافظ على حياتنا وما تبقى لنا من حلالنا.

زهير يلاحظ أن وزنه بدأ ينقص، فيعلل ذلك للحالة النفسية التي هو فيها بسبب فقدان حلاله... ولكن مع الأيام حالته تسوء، وتلاحظ زوجته أم ياس أنه بدأ يذبل وجسمه يهزل ووجه اصفَّر وشهيته معدومة... تستعين بجارهم أبي كريم ويأخذونه إلى الحارثية مقابل معرض بغداد الدولي لطبيب أخصائي معروف... وبعد الفحوصات والتحاليل، يكتشف الطبيب أن هيموجلوبين الدم عند زهير في أدنى مستوى، فيطلب منه الذهاب فورًا وبدون تأخير للمختبر لإجراء بعض التحاليل، ثم مراجعته مرة أخرى.

بعد ساعة زمن يعود زهير للطبيب ويسلمه النتيجة... يكتشف الطبيب أنه مصاب بسرطان الدم، ويحتاج حالاً إلى كمية من البلازما لرفع نسبة الهيموجلوبين... يأخذه جاره أبو كريم بسيارته إلى مستشفى مجيد الأهلي في "الكرادة داخل"، ويتم إعطاؤه قارورة دم +O، مع فيتامينات الحديد وبعض الأدوية، على أن يتم إعطاؤه قارورة أخرى في اليوم التالي، مع ضرورة الاعتناء بغذائه وخاصة الكبدة وكمية من الكرفس وأي مادة غذائية فيها حديد، ويحصل على قائمة بالمواد الغذائية الضرورية.

يعود زهير للبيت مكسور الخاطر لا من حلاله ولا من صحته.. يطلب من أبي كريم أن يبيع سيارته التي أمنها عندهم قبل السفر... يحاول أبو كريم أن يرفع من معنوياته:

- أخي أبو ياس لا تستعجل الأمور ، أنا أخوك عند عينك لا تهتم للفلوس، غدًا تُفرج يا أخي.

- المهم أبو كريم أرجوك اسمع كلامي وبع السيارة قبل أن تسُرق هي الأخرى.

(١٥)

سفيتا تلاحظ أن أرنبة أنف وعيون سام صفراء اللون، فتفحص ظهره والمناطق الحساسة فتجد أن اللون الأصفر واضح وكذلك إدرار الطفل أصفر ، فتقول لرضاب إن سام مصاب بمرض اليرقان، وينبغي مراجعة طبيب العائلة فورًا.

يخبران حسن ويذهبون جميعًا وبرفقتهم الطفل إلى المستوصف كحالة طوارئ... من حُسن حظهم يكون الطبيب المختص عراقيًا يفهمهم ويفهمونه... وبعد الفحص والتحاليل يخبرهم أن الطفل مصاب بمرض "أبو صفار" كما يسمونه في العراق...

- ليس مرضًا خطيرًا، ونتائج التحاليل مازالت مقبولة نوعًا ما، لكن يجب وضعه في حاضنه خاصة في مستشفى الأطفال وتعريضه لإنارة خاصة أيضًا، وإعطاؤه نوع من الكلكوز مع فيتامين سي، وأن يعتمد بالأساس على حليب أمه، ولا تعطوه الآن حليبًا عن طريق الرضاعة إلى أن يستقر وضعه مع ضرورة الإكثار من شرب الماء من القنينة التي ستزودكم بها الممرضة... المهم المستشفى ستقوم بالواجب، ولا تخافوا فستمر الأمور بسلام لأن دم الأبوين متشابهًا (RH موجب) ولكن الاحتياط واجب... مع السلامة.

حسن يشكر سفيتا لأنها لاحظت الأعراض في بدايتها...

يذهبون إلى مستشفى الأطفال... تنام رضاب مع ابنها في الغرفة المخصصة والطفل في الحاضنة تحت رعاية مركزة...

بعد ثلاثة أيام من التعب والسهر يعودون للبيت وقد تعافى سام وانسحب كل الصفار من جسمه عن طريق الإدرار وأصبح صاغ سليم.

الطبيب يؤكد على رضاب ضرورة أن تكون الرضاعة طبيعية من صدرها، وخاصة في الأيام الأولى من عمر الطفل.

• • • •

ينشغل حسن عن الاتصال بصديقهم زهير في العراق... ولكنه يتذكر ويتصل ، التليفون يرن دون جواب... وبعد عدة محاولات ترد أم ياس على التليفون:

- نعم حسن...
- كيف حالكم أم ياس؟
- ابني حسن نحن بأسوأ حال ، لقد سُرق بيتنا وسرق محل زهير وكل حلاله ، وحاليًا زهير مريض ومستقلي في الفراش لأنه يعاني من أنيميا الدم... ابني أرجوك أنقذ زهير بأي ثمن.
- أم ياس، أرجوكِ أريد أن أتحدث مع زهير.

- إنه نائم الآن ، عندما يستيقظ سنحاول الاتصال بكم.... لكن أرجوك حسن لا تقصِّر ، أنتَ أملنا ، وأعرف أنك ورضاب تحبان زهير مثل ما يحبكما... الله يخليك ابني ، ابذل كل جهد ممكن.

يتألم حسن ورضاب ويبكيان على زهير... ويحاول حسن الاتصال بابن زهير ياس، فتقول له رضاب:

- أرجوك اتصل بابنه عباس أفضل.
- رضاب، ما مشكلتك مع ياس؟
- لا أريده أن يزورنا، لا أطيق رؤيته.
- هل حصل منه تصرف أساء به إليكِ؟
- لا تعقّد الأمور ، أنا فقط نفسيًا لا أرتاح له، ولكن أرتاح إلى عباس لأنه ولد حبَّاب نفس أخلاق أبيه.

في اليوم التالي يأتي عباس ابن زهير إلى بيت حسن، ويذهبان معًا إلى جهاد المهرب ويتفقان معه على كل شيء... يطلب منهما جهاد ضرورة الرجوع إلى عمان وخلال ثلاثة أيام سيذهب لهم ويرتب أمور سفرهم.

يصل زهير وعائلته إلى عمان ، وكذلك وصل جهاد... ينقلهم إلى الشارقة في الإمارات العربية المتحدة ، وينزلون في أحد الفنادق، بينما يذهب جهاد إلى بيت أخته المتزوجة من إماراتي في الشارقة... وبعد أسبوع ينقلهم إلى دبي ويسكنون في الفندق

ثلاثة أيام وفِي اليوم الرابع يسافرون من مطار دبي مباشرة إلى ستوكهولم ، بعد أن يدربهم ويعطيهم بعض النقود السويدية ويعلمهم بعض الكلمات السويدية المهمة... وهو برفقتهم.

يصلون ستوكهولم جميعًا سالمين... ويستقبلهم حسن وياس وعباس ويرافقونهم إلى بيت حسن.

رضاب تستقبل زهير بفرح غامر وبالأحضان يا أعز الحبايب... وتقول لزهير:

- المهم صحتك، الفلوس تُعوض، وكلنا فداك يا رجل يا شريف يا طيب يا أخلص إنسان لنا في هذه الحياة التي كلها مشاكل... والله نحن ناس مسالمون، طيبيون، المفروض أن يرأف الله بحالنا ويساعدنا... لماذا كل هذه البلاوي ونحن الأمناء الصادقون المؤمنون.

- المؤمن مبتلى يا رضاب... ولكن دعونا نخلي عينا بعين الله، والله كريم يا ابنتي... المهم مبروك المولود سام وإن شاء الله يتربى بعزكم... وهذه أساور جميلة إلى سام ومحبس إلى حسن وتراجي ومحبس إلى رضاب.

- ما كل هذا عمو زهير؟

- رضاب، أنتِ وحسن أعز ما نملك في هذه الدنيا.

- فاتني أن أعرفكم على أحلى صديقة وفية لنا؛ إنها سفيتا من روسيا تقيم هنا وتساعدنا مثل أختنا... عمو اسمح لي أن

أهدي هذه الأقراط الجميلة إلى سفيتا لمساعدتها لنا ولأنها أنقذت ولدنا سام.

- رضاب، على كيفكِ.

سفيتا تتردد بقبول الهدية، ولكن بعد إلحاح رضاب وحسن عليها تقبلها الهدية... رضاب تثبت الأقراط الجميلة في آذان سفيتا، فتزداد جمالاً على جمال.

زهير بذكائه يلاحظ أن هناك جفوة بين رضاب ويأس، فقد استقبلت ابنه عباس بالأحضان وقبَّلته، ولكنها سلَّمت على ياس بأطراف أصابعها، ولا تكلمه أو تنظر إليه، وهو كثير الخجل منها... فيقول مع نفسه: الوقت ليس مناسب الآن.

يتناولون الطعام الذي تجهزه لهم سفيتا ويشربون الشاي...

- والآن أرى أن نذهب مع أولادنا.

يرد حسن:

- لا عمو زهير، اليوم تنامون عندنا، وغدًا نأخذكم إلى دائرة الهجرة لتسلموا أنفسكم لنستفيد من الوقت، وليصبح لديكم أوراق رسمية نستطيع بواسطتها مراجعة المستشفى من أجل صحة عمو زهير لأن هذا المرض خطير ويحتاج متابعة دقيقة ومستمرة.

يستأذن ياس لأن لديه عمل ضروري في الصباح إلى أن يجد صاحب المحل بديلاً له ليتمتع بأجازة... يشعر زهير أن

رضاب ارتاحت لذلك ، وأن حسن لم يعلّق بشيء... فيلتزم الصمت.

يسهرون إلى ساعة متأخرة من الليل، وحسن ورضاب يؤكدان لزهير ألا يبتئس أو يخاف من الأيام لأنه أصبح برعاية الدولة السويدية التي ستوفر له كل متطلبات الحياة الكريمة...

- عمو زهير أنتم عائلة كبيرة، إذن ستحصلون على شقة كبيرة وراتب مجزي وخدمات صحية وتعليمية وكل ما تحتاجون، لقد أصبحتم أبناء هذه الدولة وهي مسؤولة عنكم مسؤولية كاملة فهي أمكم وأبوكم... وعندما تراجع المستشفى ستعرف مستوى العناية والرعاية والاهتمام... أما الأولاد فحدث ولا حرج، خلال أقل من أسبوع سينتظمون بالمدارس والمدرسة ستكون مسؤولة حتى عن إطعامهم... اطمئن عمو زهير هذه دولة عظيمة بيد حكومة رشيدة، لا توجد هنا لا محسوبية ولا منسوبية ولا رشوة ولا وساطة ، كل شيء بالحق والعدل والمساواة، هنا الناس متساوون مثل أسنان المشط.

• • • •

في دائرة الهجرة يتم إجراء اللازم بشكل أصولي رغم كثرة المهاجرين العراقيين ، ويُعين لهم مسؤولة اقتصادية اسمها "كارين" ، إنسانة لطيفة كلها ذوق وإحساس وطيبة ، تسهل عليهم الأمور ، وتهتم بصحة زهير وتحجز له موعد طوارئ

فورًا ، يتم على إثره مقابلة طبيب العائلة في المستوصف ، ثم نقله إلى مستشفى تخصصي... وبعد الفحص والتحاليل يشخصون المرض.

الطبيب الأخصائي يخبر زهير بواسطة المترجم أنه يعاني من مشكلة في نخاع العظم بضعف إنتاج كريات الدم الحمراء ، وكذلك هناك مشكلة بالصفائح الدموية يمكن معالجتها... لكن هناك احتمال قوي أن يحتاج لزراعة نخاع، وهذا يتطلب مزيدًا من التحاليل والفحوصات المركزة ، وبعد المشاورات وعلى ضوء التحاليل سيقرر الأطباء المختصون...

- ولكن اطمئن ، كثير مثل حالتك رغم صعوبتها مرَّت بسلام وتم شفاء معظم المرضى...المهم أحب أن أراك بمعنويات عالية... وحظك جيد أنكَ هنا والمرض في بدايتهِ.

خلال أسبوع تخصص شقة ورواتب لزهير وعائلته ويُمنحون مبلغًا من المال لتأثيث الشقة... يستفادون من خبرة رضاب وسفيتا... ويستقرون في بيتهم الجديد القريب من بيت حسن... وتساعدهم سفيتا وحسن وأولادهم كثيرًا... وبعد أسبوعين من الزمان يقرر الأطباء إجراء عملية زرع النخاع لزهير.

يجتهد أولاد زهير وبمساعدة حسن وسفيتا في تأثيث شقتهم على وجه السرعة، ويستقرون فيها ، ولكن سعادتهم لن تكتمل إلا بشفاء زهير رب العائلة.

يختلي زهير بولده ياس ليعرف ما سَّر الجفوة بينه وبين رضاب ، ولماذا لا تعامله وكأنه أخوها الأصغر مثل ولده عباس...

يتلعثم ياس، ويبلع ريقه بصعوبة، ويتمتم بكلمات غير مفهومة.

- اسمعني جيدًا يا ياس ، إن لم تقل لي الحقيقة لا أنا أبوك ولا أعرفك... قسمًا بالله وروح أبي وبمحنتي هذه ؛ إن لم تكن صادقًا معي سأقاطعك العمر كله.

- والله يا أبي سأكون صادقًا معك وأحكي لكَ الحقيقة: كانت أختي رضاب عندي في الشقة ، وكنا أنا وهي متعبين من السفر من إسطنبول إلى ستوكهولم، وبنفس الوقت كنّا خائفين ومتألمين عليكم وعلى مصيركم... لم تقبل رضاب أن تتناول طعامًا ولا شرابًا واكتفت بشرب الماء فقط... وقلت لها: إن الشقة فيها غرفة نوم واحدة وهي لكِ ، وأنا أنام في الهول على الكنبة... رضاب دخلت غرفتها ورمت نفسها على السرير ونامت... أنا بعد ساعة زمن تذكرت أني لم أُخرج بجامتي التي أنام فيها من الدولاب ، ففتحت الباب بكل هدوء ودون استئذان من رضاب لأنها أختي لأجلب البيجامة وبطانية أتغطى بها... كانت مستغرقة في النوم وقد كشف ثوبها عن ساقيها، فوقفتُ أنا لحظات أفكّر هل أغطيها أم آخذ بجامتي والبطانية وأخرج... فقررت أن أغطيها... وفِي هذه

الأثناء استيقظتْ مرعوبة، وقالت لي: ماذا تفعل هنا؟ اخرج من الغرفة حالاً... وسترت نفسها بالغطاء... أنا في الحقيقة تلعثمت ولم أعرف ماذا أقول... وخرجت من الغرفة مسرعًا ونمت بملابسي على الكنبة... رضاب من الصباح تركت الشقة واستعانت بأخي عباس وذهبت سلمت نفسها لدائرة الهجرة وطلبت منهم السكن في مجمع اللاجئين ، وأخذت تنظر لي بإزدراء وعدم احترام، وقاطعتني... وأنا وحياتك يا أبي وبالله العلي العظيم كان قصدي شريفًا وهي بمقام أختي الغالية... والله لم أرتكب خطأً في حقها وحقكَ يا أبي العزيز.

- ياس، هل أوضحت لها الأمور؟
- لم تعطني فرصة وأخذت تتجنبني ولا تريد رؤيتي.
- المهم أنا صدقتكَ يا ياس ، ولكن الأهم أن تصدقكَ أختكَ رضاب.
- وكيف أتصرف يا أبي؟
- سأساعدك في هذا الموضوع.

في صباح اليوم التالي يتصل زهير برضاب ويسألها عن حسن فتقول له:

- أخبرتنا المسؤولة كريستينا أنه يتوجب علينا الانتظام بالمدرسة لتعلم اللغة السويدية ، فذهب حسن للمراجعة وإفهامهم أني لدي أجازة أمومة لمدة سنة كاملة.

- طيب، أنا قادم لزيارتكِ بموضوع مهم قبل عودة حسن.

زهير بصحبة ولده ياس يذهبان إلى شقة حسن ، فتستقبلهما رضاب، وتسلّم سلامًا حارًا على زهير، وببرود على ياس.

- بدون شاي وبدون ماء؛ أريدك أن تسمعي ياس للآخر، وأنا سأنزل أشتري لي علبة سكائر من المحل المجاور.

يحكي ياس وهو يبكي ويتألم ويرجوها أن تصفح عنه رغم أنه كان حسن النية ويكن لها كل الحب والاحترام وأنها أخته الكبيرة... ويحاول أن يقبِّل يدها ولكنها تقول له:

- انتهى الموضوع يا ياس، واقتنعت بما تقول والآن صدقتكَ... خلاص انتهى الموضوع.

يعود زهير فيجدهما سمن على عسل...

- رضاب، انتهى الموضوع؟

- نعم عمو زهير.

- يعني صافي يا لبن؟

- نعم عمو زهير.

- ياس قم فقبل يَّد أختكَ الكبيرة.

- والله يا أبي حاولت، ولكنها رفضت.

- حاول مرة أخرى بحضوري.

ياس يقبل يَّد رضاب ويبوس رأسها... ويقول:

- والله يا أختي إنه سوء فهم فأنا ابن زهير وأنت أختي العزيزة.

فتبادر رضاب إلى تقبيل ياس وتقول:

- خلاص انتهى الموضوع، وهذا زهير أبونا كلنا...

وتقبِّل زهير وتعتذر منه.

يعود حسن فيجد زهير وياس عندهم في البيت.

(١٦)

زهير مهموم بالعملية ونسبة نجاحها ، والكل يطمئنونه ويشجعونه... وتمر أيام الانتظار صعبة على زهير وعائلته، ويشاركهم هذا القلق حسن ورضاب وسفيتا.

قبل موعد العملية بيومين يدخل المستشفى لإجراء مزيد من الفحوصات والتحاليل... ينبهر بنظافة أقسام المستشفى وبالرعاية والحب والحنان من قبل الأطباء والممرضات... فيرتاح نفسيًا...

أم ياس تحاول جلب بعض الأطعمة إلى المستشفى، فتسأل أبا ياس:

- ماذا تحب أن أطبخ لكَ غدًا؟

- يا أم ياس استهدي بالله، المستشفى هنا مهيأة لكل شيء من مأكل ومشرب صحي، وأنا هنا لا أحتاج إلى أي شيء سوى نجاح العملية، وعليَّ أن ألتزم بدقة بكافة التعليمات الطبية... أنا محتاج دعواتكم... وهذا الأكل أعطوه للفقراء.

تبتسم سفيتا:

- هنا لا يوجد فقراء أبدًا ، الكل يأكلون ويشربون ويسكنون ويلبسون... السويد تطبِّق النظام الاشتراكي ولكن بأسلوب ليبرالي متقدم ، صحيح الضرائب عالية نوعًا ما ، ولكنهم

يسخِّرون أموال الضرائب لخدمة الناس وتسهيل حياتهم... وأذكر السنة الماضية اعترض بعض النواب على هذه الضرائب وطالبوا الحكومة بتخفيضها ، فعرضت وزارة التربية في التلفزيون السويدي مدرسة مدامة ومدرسة أخرى غير مدامة لمدة سنة ، وقالت : هذا الفارق ، يا حضرات النواب نحن نستخدم أموال الضرائب في أعمال الصيانة لكل مرافق البلاد ، فهل تقبلون أن يتعلم أولادكم في مدارس متهالكة؟! أم في مدارس مدامة على أكمل وجه وباستمرار ؟ فسكت النواب المعترضون.

الأربعاء في تمام الساعة التاسعة صباحًا يدخل زهير صالة العمليات الكبرى... وأربعة ساعات من الانتظار والترقب كأنها دهر... الكل ينتظرون الفرج والبُشرى ، ورضاب وسفيتا في البيت مع سام وباتصال مستمر بحسن.

أثناء العملية تحصل دربكة خارج صالة العمليات... إحدى الممرضات تخرج من الصالة وهي تجري بسرعة... الكل تكاد قلوبهم أن تقف؛ خاصة أم ياس التي جلست على الكنبة منهارة من الخوف... بعد حين يخرج الكادر الطبي من الصالة ويبشرون حسن أن العملية ناجحة وأن زهير بخير ، وعندما يفيق من البنج سيتم نقله إلى العناية المركزة في مكان آخر... ويطلبون منهم البقاء في صالة الانتظار.

صالة الانتظار مجهزة بالشاي والقهوة وأنواع الفاكهة والعصائر، ولكن الجميع قلقون على زهير ويتلهفون لرؤيته.

بعد انتظار ممل لساعات طويلة يتم نقل زهير للعناية المركزة... ويخبرون الجميع بأنه حالته حرجة وممنوع زيارته مطلقًا خوفًا عليه، وأنه يمكنهم الذهاب إلى بيوتهم لأنه لا داعي لوجودهم.

يذهب الجميع إلى الصالة الكبيرة... وفِي التاسعة ليلاً يبقى حسن وياس وعباس، ويعود الباقون إلى بيت حسن.

صباح اليوم التالي يسمحون لحسن وياس وعباس برؤية زهير ولكن من خلف الزجاج، ولمدة دقائق معدودة، وبعد أن يرتدوا كمامات طبية... ينزلون للصالة فيجدون أم ياس وسفيتا بانتظارهم فيبشرونهما أنهم رأوا زهير، وأن عليهم الانتظار والدعاء بأن يرعاه الله ويشافيه ويعطيه الصحة والعافية.

تمر ثلاثة أيام على هذا الحال، بعدها ينقلون زهير إلى غرفتهِ الاعتيادية ويتمتع الجميع برؤيته وتهنئته على نجاح العملية... حتى رضاب تؤمن طفلها سام عند سفيتا وتأتي لرؤية الغالي زهير لتطمئن عليه.

بعد أسبوع يخرج زهير من المستشفى والتحاليل تؤكد أنه بخير وصحة وعافية.

أم ياس تطلب من ابنها ياس أن يذبح لأبيه خروفًا ويوزعه على الناس... فيضحك الجميع...

- والله أم ياس أنتِ بطرانة، أين نجد هذا الخروف ؟ ومن يسمح لنا بذبحه؟

ويعلّق زهير وهو يضحك على زوجته أم ياس:

- أنتِ تذكرينني بزمن الحصار ، عندما ذهب أبو حسن مع مجموعة من أهل القرية لخطبة فتاة من قرية مجاورة فقال أبوها: طلباتي كيس رز بسمتي وصندوق بيض... فقالوا له: يعني أنتَ ما تريد تزوج ابنتكَ، قول أنا غير موافق وفض الموضوع، لأن طلباتك لا نقدر عليها لعدم إمكانية توفرها.

- زهير، الحمد لله والشكر على كل حال، المهم السلامة... والله نحن ما نستأهل كل هذه المآسي، ولكن ربك له فيها حكمة.

تحكي رضاب لهم قصة المسكينة سفيتا ومأساة زوجها المظلوم سريوجا كالينوف المسجون عشر سنوات هنا في السويد وبغرامة لا يقدرون على دفعها... يتألم الجميع لقصة سفيتا ، ويتعهد حسن وزهير بمساعدتها: المهم الله يفك سجنه وتخفف العقوبة ويخرج سالمًا... فتهز سفيتا رأسها وتشكرهم...

- صحيح أنا وسريوجا مظلومين، ولكن ياما في السجن مظاليم واسمعوني سأقص عليكم قصة صديقتي تسكن معي في مجمع اللاجئين ، الذي يشوف مصيبة غيره تهون عليه مصيبته...

أحيانًا الإنسان يوضع في امتحان صعب جدًا هو لم يختره ولكن يُفرض عليه ، إنه امتحان رب العالمين كما تقول رضاب ، انظروا إلى الامتحان الصعب الذي وُضِع فيه زوجي سريوجا إما أن يضحي بالجميع فيموت كل من في الزورق أو يضحي بالجزء لينقذ الكل ، وعقله وحظه العاثر وضعه في امتحان صعب فاختار أن يضحي بالجزء التعبان لينقذ الكل الصاحي السليم... تصوروا ماذا حصل له، وهو وأنا الآن نتحمّل نتيجة هذا الموقف الصعب.

وقصة صديقتي الاسكتلندية هذه أصعب من قصتي لأن زوجها وليام أيضًا وُضِع في موقف صعب وعقله وحظه العاثر قاده لتصرف متهور دفع ثمنه غاليًا... حاول أن يستخدم ذكاءه للتخلص من هذه الورطة التي وضع نفسه فيها ولكن دائمًا ليس هناك جريمة كاملة، فلا بد من وجود خيط مهما كان واهنًا لحل لغز أي جريمة مهما كانت محكمة... وأرجو أن تصغوا للقصة.

وليام موظف في دائرة التأمين في غلاسكو ، حاول مساعدة صديقه ألبرت الذي قُتلت زوجته في حادث دهس سيارة في الشارع العام وهي تعبر من فوق خطوط المرور... وكان سائق السيارة مخمورًا وفي حالة سُكر شديد.

وليام وعد ألبرت أنه يستطيع مساعدته في الحصول على أعلى نسبة ممكنة من التأمين لا يستطيع أبرع المحامين الحصول

عليها ، بحكم خبرته وعمله سنوات طويلة في دائرة التأمين ، ولكن مقابل عشرين بالمئة من التعويض الُكلي المجزئ.

ألبرت وافق على ذلك واتفق، وأقسم.

وليام بذل جهودًا جبارة في إتمام المعاملة في الدائرة ، وبذلك حصل ألبرت على تعويض مجزي قدره مائتان وخمسون ألف باوند إنكليزي ، ما كان يحلم به ، فالمحامي الذي اتفق معه في بداية الأمر أخبره أنه لن يستطيع الحصول على تعويض أكثر من ستين ألف باوند.

ألبرت قرر الهجرة إلى كندا لاستثمار المبلغ والعيش هناك بغنى وسلام.

ذات مساء شتاء بارد جاءه صديقه وليام يطالب بحقه من الاتفاق، فأعطاه ألبرت عشرة آلاف باوند...

- ما هذا؟! أنا حقي خمسون ألف باوند

- لن أعطيك أكثر من هذا ، فالمحامي قبل الاتفاق معكَ طلب مني هذا المبلغ.

غضب وليام من تصرف صديقه المشين هذا ، واحتدَّ النقاش بينهما، وتدافعا... وهدد ألبرت بإبلاغ البوليس إذا لم يترك وليام بيته حالاً ، وأمسك الهاتف مهددًا ومتوعدًا... ففاجأه وليام بضربة على رأسه بماشة موقد النار (fire place)... فسقط ألبرت جثة هامدة.

صُعِق وليام من الموقف الجلل الذي وضع نفسه فيه دون قصد منه... حاول إسعاف صديقه ألبرت، ولكن دون فائدة، لقد فارق الحياة.

فكر وليام، وقاده عقله إلى ضرورة التخلص من الجثة بأي ثمن وإخفاء معالم الجريمة بدقة عالية.

لفَّ الجثة ببطانية وأدخلها في شلتت مندر (كيس مرتبة نوم) وربطها ربطًا محكمًا... ثم بدء في إزالة آثار الجريمة بعد أن تمالك نفسه بهدوء ودقة عالية، مسح الأرض وغسل ماشة النار والأقداح وفنجان القهوة ومقابض الأبواب وكل شيء لمسه أو جلس عليه، ثم هيئ المصعد، وسحل الجثة بهدوء إلى المصعد وأنزلها وحشرها في صندوق سيارة ألبرت المسكين.

عاد إلى الشقة ليتأكد أن كل شيء مضبوط... تناول حقيبة النقود وخلع حذاءه ووضعه في كيس ولبس أحد أحذية ألبرت رغم أن مقاسها أكبر من مقاسه... وعاد ومسح كل شيء حتى الأرض مرة ثانية... أغلق باب الشقة وقفلها بالمفتاح وركب سيارة ألبرت وذهب إلى ساحل البحر... حمل الجثة وتقرب من الماء وثقلها بحجر وألقاها في الماء.

عاد على نفس اثاره وترك شيئًا من ملابس ألبرت قرب السيارة... ثم أوقف سيارة عابرة أقلته للمدينة مع حقيبة النقود... ومن وسط البلد ركب سيارة أجرة أخرى إلى بيته.

من سوء حظه أن امرأة عجوز تجلس قُرب نافذة غرفتها المقابلة لشقة ألبرت لديها منظار مكبر (دوربين) هوايتها تتفرج فيه على الآخرين لقضاء الوقت... رأت الجريمة بكل تفاصيلها. أخبرت العجوز البوليس بما شاهدته.

كسر البوليس باب الشقة، ولكنهم لم يجدوا أي آثار للجريمة، أو أداة الجريمة أو الضحية أو النقود، وليس سوى أثر واحد على الأرض لقدم قياس ٤٢ ودفتر تليفونات ألبرت الشخصي.

العجوز وصفت للمحققين هيئة المجرم ، فقالت أنه طويل ، ضخم، أصلع ، يلبس بدلة سوداء وربما زرقاء وربما رمادية اللون ؛ لأنها مصابة بعمى الألوان ، ولم تتعرف على ملامحه بسبب المسافة ورذاذ المطر وغروب الشمس.

وجد البوليس في اليوم التالي سيارة ألبرت قرب ساحل البحر وبقربها ملابس وآثار حذائه قياس ٤٤ باتجاه الماء ، ولا أثر للضحية.

حققوا مع جميع أصدقاء ألبرت المثبتة هواتفهم في دفتر التليفونات وخاصة الذين يترددون عليه ، وتم عرض صورهم على العجوز ، فلم تتمكن من تحديد الفاعل.

المحقق يشك بقوة في وليام لأن حذاءه قياس ٤٢ مطابق للأثر الوحيد الموجود على أرضية الشقة ، ولأن المواصفات التي ذكرتها العجوز تنطبق عليه من حيث الطول والضخامة

والصلع ، كذلك لديه بدلة كحلية ، ولأنه موظف في التأمين ، وألبرت كان قد استلم مبلغ التأمين، وشهد عدد من الموظفين أن وليام كان يتابع باهتمام هذه المعاملة، وأن مبلغ التأمين ضاع بفعل فاعل.

المحقق وهو بين الشك واليقين أحال أوراق الدعوة إلى محكمة الجنايات.

وليام أوكل القضية إلى محامي ذكي وشاطر ودفع له ما يريد، لأنه أصبح يملك المال.

المدعي العام كان متحمسًا ، لاحظ المحامي تعاطف هيئة المحكمة مع الإدعاء العام، وأن موقف موكله أصبح ضعيفًا.

بادر المحامي الذكي في دفاعه قائلاً :

- من قال إن ألبرت قد قُتل، هذا محض افتراء من المدعي العام إذ لا توجد أدلة مادية ضد موكلي ، ولا وجود لأركان الجريمة، الجثة غير موجودة، شهادة العجوز غير واضحة ولم تستطع التعرف على الفاعل عند عرض أصدقاء ألبرت على العجوز وكان وليام من ضمنهم ، وكثير من أصدقاء المغدور طوال القامة ضخام الجثث حاسرو الشعر ، وأؤكد لهيئة المحكمة الموقرة براءة موكلي من التهمة بدليل أن الشاهدة لم تتعرف على المتهم عند العرض ، وكثير من أصدقاء ألبرت قياس حذاءه ٤٢... سادتي القضاة: أين أركان

الجريمة ؟!... وأزيدكم علمًا أن ألبرت حيٌ يرزق وهو حاليًا في بناية المحكمة يريد أن يدلي بشهادته إذا سمحت له هيئة المحكمة بالدخول.

سأل رئيس القضاة المحامي، والكل في دهشة واستغراب :

- أين ألبرت ؟!

- إنه واقف خلف هذا الباب.

التفت الجميع صوب الباب بما فيهم المدعي العام والقضاة.

رئيس القضاة يأمر بفتح الباب.

فُتح الباب، لم يدخل أحد.

قال القاضي:

- أين ألبرت أيها المحامي ؟!

قال المحامي :

- سادتي القُضاة ، كلكم اعتقدتم أن ألبرت موجود ، أي أنتم تشكون في قتله ، بدليل أن كلكم نظرتم إلى الباب ، وبما أن القانون يؤكد أن الشك يُفسَّر لصالح المتهم ، فحتمًا وليام بريء من التهمة المنسوبة إليه، وأشكركم.

صدر القرار من هيئة المحكمة بعد المداولة ببراءة وليام، وأُفهم علنًا قرارًا قابل للتمييز ، وعند توفر أدلة جديدة يتم فتح القضية.

مرَّت أيام ثقيلة على المدعي العام وهو خجلان من نفسه وذكائه وخبرته الطويلة في أصول المحاكمات.

في اليوم التالي اتصل مصور المحكمة بالمدعي العام يريد مقابلته لأمرٍ مهم.

قال المدعي العام للمصور:
- تفضل أنا بانتظارك يا سيد.

دخل المصور وبيده شريط فيديو لسير المحاكمة... تفرج عليه الاثنان خطوة خطوة وبدقة... قال المصور للمدعي العام:
- سيدي لاحظ أن جميع من في قاعة المحكمة صوبوا أنظارهم نحو الباب ما عدا المتهم وليام، الذي انشغل بتقليب الأوراق التي بيديه، لأنه متأكد من موت ألبرت، وأنه من المستحيل أن يكون خلف الباب.

قدَّم المدعي العام بعد أن اقتنع مطالعة وأرفق بها شريط الفيديو وطالب بإعادة فتح التحقيق بالقضية لوجود مستجدات.

أُعيد التحقيق بالقضية واضطر وليام للاعتراف بالجريمة بعد إلحاح المحققين والضغط عليه ومواجهته بشريط الفيديو ومطاولتهم بالتحقيق.

حُكم على وليام بالسجن المؤبد وإعادة مبلغ التأمين حتمًا.

بعد أن أنهت سفيتا سرد قصتها ، قال لها زهير :

- القصة جميلة وتشد المستمع يا سفيتا ، لكنها طويلة ، صار لكِ أكثر من ساعة تقصين علينا هذه القصة ، وسبقتك رضاب أن قصت علينا قصة زوجك سريوجا... وبعدين نقضي الوقت نسمع قصص توجع القلب.

- المعنى يا عمو زهير أن الإنسان أحيانًا يوضع في موقف صعب فيرتكب خطأً يُحاسب عليه بشدة... ولكن يا رفيق زهير ؛ سريوجا زوجي من وجهة نظري لم يرتكب خطأ لأنه ضحى بالجزء في سبيل إنقاذ الكل.

- هذا يذكرني يا سفيتا بحكاية حلوة ممكن أن تكون مفيدة... عندنا بالعراق شاعر مشهور اسمه "عبد الغفّار الأخرس" لأنه لا يستطيع النطق... سافر إلى الهند وعرض نفسه على طبيب اختصاصي مشهور هناك ، وبعد المعاينة والفحص والتحاليل ، قال له الدكتور الهندي : يمكنني أن أجري لك عملية في الدماغ ، إما أن تموت أو تنطق ؟... فردَّ عليه الشاعر : أنا لا أبيع جزئي بكُلي... وزوجكَ باع الجزء لينقذ الكل ، والمفروض يُكافَئ حسب وجهة نظري ووجهة نظر أي منصف.

حسن يقول لهم :

- لا تتعجلوا الأمور ، الشتاء قادم ، ويقولون إن درجات الحرارة هنا تنخفض تحت الصفر ، وتتحول الدنيا كلها إلى بياض

ويصير عندكم وقت كافي تقعدون في البيت وهات يا قصص ولكن المشكلة لا يوجد عندنا موقد نجلس حوله، لأن البيوت هنا مدفأة مركزيًا.

(١٧)

تمر الأيام والجميع بصحة جيدة ونوع من السعادة رغم الغربة لكن المهم الأمان والحياة المرفهة والخدمات العالية وإنقاذ زهير من مرض خطير.

يقدم الشتاء هذه السنة مبكرًا في نهاية نوفمبر (تشرين الثاني) وتمطر السماء رذاذًا كثيفًا من الجليد ، يغطي كل شيء : البنايات والشوارع والأشجار والسيارات... وتنخفض درجات الحارة تحت الصفر ، فتُغطى الأرض بطبقة كثيفة من الجليد... السويديون قد تعودوا هذا الطقس القاسي ، والدولة اتخذت كل الاحتياطات اللازمة ، فالبيوت كلها مدفأة بدرجة حرارة ٢٢ تقريبًا ومجهزة بالماء الحار مركزيًا... كذلك الأسواق كلها مدفأة ، والباصات والقطارات وكل محطات النقل والأنفاق والأسواق المركزية وكل الكلريات... بمعنى المواطن لا توجد لدية مشكلة إذا لبْس ملابس سويدية شتائية وحذاءً شتويًا مبطنًا.

حسن ورضاب يتابعان ماكينات إزاحة ورفع الكميات الهائلة من الجليد المتراكم في الشوارع والتي تنقله بعدها إلى البحيرات المتجمدة هي الأخرى... رضاب تفكر وتقول:

- اسمع حسن لو في بلادنا العراق رفعنا التراب الزائد والسكراب والأزبال مرة واحدة وأدمنا نظافة بلادنا...

لأصبحت بلادنا من أجمل بلدان الدنيا... أكيد السويديون كل عام تتكرر عندهم هذه المشكلة، ولكنهم يبذلون كل الجهود ويسخِّرون كل الإمكانات، لتستمر الحياة، إنهم شعب حي.

فيرد عليها حسن:

- لو كان في بلادنا جدية وتخطيط وإخلاص للوطن لأمكن زراعة أرض العراق بالخيرات طولاً وعرضًا ويمكن استغلال نهري دجلة والفرات بزراعة غابات بكثافة غابات السويد ومن أشجار غير نفضية وكثير منها مثمرة مثل النخيل والحمضيات وغيرها، وكذلك زراعة غابات من أشجار دائمة الخضرة مثل أشجار السرو والصفصاف والغرب والسيسبان السريعة النمو.

يشاركهم زهير الحديث:

- تعرفين يا رضاب إذا الدولة أكثرت من البحيرات الصناعية وأنشأت آلاف النافورات وشقت الترع والجداول كما كان في العصر العباسي وبدون مكننة؛ لتحسن المناخ في الصيف ولغدت بلادنا جميلة زاهية، ولحصلنا على ثروة دائمة قد توازي ثروة النفط الزائلة... كان هارون الرشيد يخاطب الغيمة فيقول: (امطري أينما شئتِ، فخراجك سيعود لبغداد) لكن مشاكل بلادنا كثيرة وكبيرة وبدون حلول، وكل ما نقول راح تفرج تتعقد الحياة أكثر: ثورات وصراعات وخلافات... الأحزاب تفكر بمصالحها الخاصة بعيدًا عن روح المواطنة،

وخيرات الشعب تُسرق من قِبل الحيتان ولا أحد يعرف أين تذهب... وهذا ليس حالنا وحدنا، بل حال كل الدول العربية؛ أقوال بدون أفعال وبدون برامج وتخطيط، والناس ليس لها إلا الله الذي خلقها.

رضاب تعلّق:

- أي تخطيط؟ قل شخابيط، خرابيط... تمر السنين ونحن من حال إلى حال أسوأ... شوفوا العالم إلى أين وصل من التقدم والازدهار ونحن مثل بول البعير نرجع للوراء.

تعلّق أم ياس:

- والله حَرّ العراق ولا برد السويد... انظروا للدنيا كلها غدت بيضاء، الأرض مثل السماء... يتصور ليَّ أن السويد قد ضُربت بقنبلة ذرية، والله الساتر.

يضحك الجميع على أم ياس...

- الآن أنتِ بردانة ؟

- لا والله... كل شيء تمام، وهذا المهم... الله يعطي الحكومة السويدية الصحة والعافية ما مقصرين بشيء، كل شيء متوفر والحمد لله.

سفيتا تقول لأم ياس:

- انتظري بعد وشوفي برأس السنة الله شخالق، الجليد يصبح ارتفاعه أمتار، ودرجات الحرارة عشرين تحت الصفر، أي

مثل المجمدة... كل هذا والسويد أحسن من بلدي روسيا التي تنخفض فيها درجات الحرارة إلى أربعين تحت الصفر.

أم ياس:

- يايمة، الحقنا زهير، رجعنا للعراق الله يخليك.

يضحك الجميع ، وهم سعداء مستبشرون بالحياة الجديدة وبالإمكانات والخدمات وضمان المستقبل لهم ولأولادهم وأحفادهم، ولشفاء زهير رب العائلة، وبالمولود الجديد سام... الجميع سعداء فرحين يحب بعضهم بعضًا ويعتني بعضهم ببعض عناية العيون بالأقدام... ويتعاطفون مع رفيقتهم سفيتا التي تحبهم ويحبونها ويتمنون لها كل الخير.

ومع هذا يقول زهير:

- يا جماعة الخير ، يبقى الوطن عزيز وغالي (بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة ، وقومي وإن ضنّوا عليَّ كِرام).

تستلم سفيتا رسالة من سريوجا يبشرها أن مدة محكوميته قد خُفضت إلى خمس سنوات من قبل التمييز ورفع الغرامة التي يتحملها التأمين ، وأنه سيأتي لزيارتها في أعياد رأس السنة (أعياد الميلاد).

يفرح الجميع ويقبِّل أحدهم الآخر ، ويقبِّلون سفيتا ، والتي تدعوهم على حفلة عشاء على حسابها الخاص في بيت حسن ورضاب، وتحضن رضاب وتبكي وتقول:

- معرفتكم خير وبركة ، أنا أحبكم وأموت من أجلكم ، يا أعز الناس.

حسن يقول لها :

- والله أنا مشتاق لرؤية سريوجا ، أنتِ شوقتِنا لرؤية زوجك ، وأكيد إنسان طيب وحبَّاب مثلك...

ثم يوجه حديثه لزهير :

- عمو ، راح نذهب أنا وياس وعباس لنشتري لسفيتا المواد الضرورية للعشاء من الأسواق القريبة...

سفيتا :

- سآتي معكم.

- تفضلي، ولكن لا نسمح لكِ بدفع الحساب يا سفيتا.

- صدقني يا حسن ، إذا أحتاج نقود أكيد سأطلبها منكم ، ولكن عندي ما يكفي وزيادة ، وحقك يا غالي... إن شاء الله تكمل فرحتنا عندما يكون سريوجا بيننا ، لقد أصبحنا عائلة واحدة نحيا على الحلوة والمرة.

فتقول رضاب :

- والله أنا ما أشوف هنا في هذه البلاد حاجة مرة ، كل شيء حلو ، حتى الثلج عندي أحسن من التراب والأزبال... أنا والله مرتاحة من الماي يعني الواحد يشرب ماي من الإسالة هذا ممكن فقط في السويد حسب ما أسمع وأشوف... هذه

الحكومات الوطنية المخلصة التي تعمل بجد ونكران ذات لشعبها... هنا الحياة مريحة بدون تعقيدات وبدون مشاكل وبدون خوف، الواحد يأمن على نفسه وعلى أولاده وأحفاده، والدولة هي أمك وهي أبوك وتؤمن لكل الناس حياة رغيدة سعيدة، وتضمن المستقبل للجميع بعناية وتخطيط، وليس مثلنا مع الأسف شخابيط وخرابيط.

انتهت



المؤلف في سطور

- الدكتور بشير عبد الواحد يوسف.
- وُلِد في مدينة العمارة (محافظة ميسان) في ١٢ ـ ٨ ـ ١٩٤٣م وانتقل مع أهله في نفس العام إلى مدينة البصرة وأكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية في مدارسها.

- حصل على الشهادات:

١- بكالوريوس هندسة طيران.

٢- ماجستير هندسة طيران.

٣- دكتوراه علوم سياسية.

٤- دكتوراه دراسات مندائية (أديان مقارنة).

- صدر له:

١- بناء هيكل الطائرات ومنظوماتها.

٢- بناء محرك الطائرات النفاذة ومنظوماتها.

٣- صيانة الطائرات النفاذة ومنظوماتها.

٤- رئيس اللجنة المشرفة على ترجمة الكتاب المقدس لطائفة الصابئة المندائيين (الكنز العظيم).

٥- حكايات صغيرة: شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٦م
٦- الصابئة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف: شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٧م
٧- الموسوعة المندائية: شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م
٨- الحب الحقيقي: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م
٩- رضاب: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م
١٠- الفريضة: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م

- البريد الإلكتروني: bashir_1208:yahoo.com



Tel:(+2) 01288890065

www.shams-group.ne